المقتطف

الجزء الثامن من المجلد السابع والعشرين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٢ — الموافق ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٢٠

الدكتور بلس

رئيس المدرسة الكلية السورية الاول

للامم كما للافراد ادوار يستيقظون فيها بعد السبات وينهضون للعمل بعد الخمول . ولقد كان زمن هذه النهضة في بلاد الشام منذ اربعين عاماً بعد الحادث الكارث الذي سُفكت فيهِ دماء الابرياء وخربت المنازل وشتّت الشمل

"وللشر إقلاع وللهم فرجة وللخير بعد الموئسات عوائدُ"

وكانت فاتحة النهضة انشاء المدارس الكبيرة فامَّها الطلبة من كل فج رغبةً في اكتساب العلم والتذرُّع بهِ الى العمل . انشأ المرحوم المعلم بطرس البستاني المدرسة الوطنية في بيروت وانشأت طائفة الروم الارثوذكس مدرستها الكبرى في سوق الغرب والطائفة الدرزية المدرسة الداودية في عبيه عدا المدارس الكثيرة التي انشأها قبيل ذلك المرسلون الفرنسويون في جهات مختلفة من جبل لبنان وعدا مدرستي البنات في بيروت مدرسة مسز طمسن الانكليزية والمدرسة الاميركية اللتين أُنشئتا ليجد شبان النهضة الجديدة زوجات متعلمات يجارينهم في ميدانها فلا تكون عقيمة من حيث عمران البيوت وتربية الجيل التالي

وكأَن دماء الابرياء التي اريقت في لبنان ودمشق ووادي التيم في الحادث الذي اشرنا اليهِ آنفاً. والاموال التي جاد بها المحسنون من اهالي اوربا واميركا لتنفق على الذين نكبوا في تلك النكبة. والغيرة التي غارتها دول اوربا على توطيد الامن في ربوع الشام. والهمة التي بذلها ولاة الامور لانجاح البلاد واسعاد العباد من عهد فؤَاد باشا وداود باشا — كلٌّ ذلك ولَّد في النفوس رغبةً شديدة في طلب العلم واقنع روَّاد المعارف ان سعيهم لا يذهب سدًى فحلَّت على البلاد

روح جديدة روح التعلم والتعليم وصار الرجال يتركون اعمالهم وحرفهم بعد ان زاولوها سنوات ويدخلون المدارس يطلبون العلم مع صغار الطلبة. وصارت مطارحات الناس ومذاكراتهم في حل المسائل اللغوية والرياضيَّة ومجتمعاتهم لاستماع الخطب العلمية والادبية

ولم يكد الطلبة يحرزون مبادئ العلوم حتى اتجهت همة القس الفاضل الدكتور بلس احد المرسلين الاميركيين في جبل لبنان الى انشاء مدرسة كلية تعلّم العلوم العليا وتعد الطلبة لتعلُّم العلوم الفنيَّة كالطب والصيدلة والهندسة والشريعة وتكون مثل المدارس الكلية في اوربا واميركا فخاطب اخوانهُ المرسلين في هذا الشأن ولا بدَّ من ان يكون قد وجد بينهم المرغِّب والمزهِّد لاختلاف عقول الناس ومذاهبهم والظاهر انهم اتفقوا اخيرًا على استحسان العمل وانتدبوهُ لجمع المال لهُ من اوربا واميركا لان عملاً مثل هذا يقتضي مالاً طائلاً لا يمكن جمعهُ من بلاد شرقية

كان الدكتور بلس حينئذٍ كهلاً في الاربعين من عمرهِ فانهُ ولد في السابع عشر من اغسطس سنة ١٨٢٣ ولم يتسنَّ لهُ طلب العلم فتيً فطلبهُ شابًا ونال الشهادة البكلورية من مدرسة امهرست الجامعة وعمرهُ ٢٩ سنة ثم درس علم اللاهوت واجيز لهُ فيهِ وعمرهُ اثنتان وثلاثون سنة . وكأنهُ لما رأى الشبان السوريين بعدئذٍ يتركون اعمالهم وينقطعون لطلب العلم مثلهُ ودَّ ان يرتووا منهُ كما ارتوى هو

واقترن تلك السنة بزوجتهِ الفاضلة التي يحسبها تلامذة المدرسة الكلية امًا لهم كما يحسبون زوجها ابًا وهي اكبر عضد لهُ في اشغالهِ والروح التي توحي اليهِ من وراء الستار

وقصد بيروت سنة ١٨٥٥ في سفينة شراعية فوصلها في العام التالي واقام في عبيه وسوق الغرب يتعلم العربية ويعلم ويبشر الى ان خطر لهُ انشاء المدرسة الكليَّة على ما تقدَّم فعاد الى اميركا يحثُّ الاغنياء والفضلاء على الجود بالمال لهذا العمل المبرور . وقدَّر لهُ الله ان سمع خطبهُ الاولى رجل كريم من اهل اليسار فاستوضح غرضهُ بالتفصيل وكان من اول المكتتبين بالمبالغ الطائلة ومن اكبر القائمين بانشاء هذه المدرسة وممَّن لهم اليد الطولى في حث اخوانهم الاغنياء على المشاركة في هذا العمل

والنوادر التي سمعناها منهُ عن مقابلة الناس لهُ وهو يعرض عليهم الغرض الذي يتوخاهُ ويحثهم على الاخذ بيدهِ تدلُّ على انهُ اعرف الناس باخلاق الناس وكثيرًا ما كان يقصد رجلاً مشهورًا بالبخل فينال منهُ اكثر ممَّا ينال من رجل مشهور بالكرم. وبعد عناء كثير لا يعلمهُ الا الذين سألوا الناس ولو لاشرف الغايات وانبلها جمعَ المال الكافي وتألف مجلس في اميركا

ائتُمن عليهِ وصدرت الرخصة الرسميَّة من حكومة نيويورك بانشاء المدرسة الكلية في بيروت فعاد الى سورية ونشر لائحة العلوم التي يراد تعليمها في هذه المدرسة فحالما اطلع عليها كاتب هذه السطور وكان من طلبة العلم في مدرسة عبيه والدكتور بلس مصطاف فيها تاق الى مقابلتهِ فقابلهُ بالبشاشة والهشاشة ووعدهُ خيرًا . ولما فتحت ابواب المدرسة في اوائل اكتوبر ضاف التلامذة الاوَّلين في بيتهِ الى ان اعدت معدات المنامة فيها. وكنَّا ستة عشر طالبًا لا غير اكثرنا شبان تعلَّموا وعلموا قبل افتتاح المدرسة فقام على تعليمنا هو والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم اسعد الشدودي والمستر فريزر الاسكتلندي والمسيو شارليه بازيه الفرنسوي . وكنَّا نأكل في المدرسة الوطنيَّة ونتعلم وننام في دار صغيرة مأجورة . وفي العام التالي انشئ الفرع الطبي وجاء الدكتور ڤان ديك والدكتور ورتبات والدكتور بوست للتعليم فيهِ وفي القسم العلمي ايضًا . ولما وقفنا لاستلام الدبلوما في آخر السنة الرابعة كنَّا خمسة لا غير كاتب هذه السطور واربعة من اخوانهِ والباقون توفوا او انتقلوا الى القسم الطبي او تركوا الدرس لاسباب أُخرى

وقد مرَّ على المدرسة الكلية الآن ٣٣ سنة فانتقلت من تلك الدار الصغيرة المأجورة الى مبانٍ رحبة فخيمة خاصة بها تكاد تكون بلدًا في رأس بيروت وزاد عدد الطلبة من ستة عشر الى اكثر من ستمئة . وللدكتور بلس اليد الطولى في هذا النمو والاتساع فبسعيهِ جُمع اكثر المال الذي بنيت بهِ مباني المدرسة المختلفة والمال الذي يُنفق ريعهُ على اساتذتها . وباهتمامهِ بنيت تلك المباني ولم ينفق عليها الاَّ اقل ممَّا ينفق على مثلها في مدينة بيروت . هذا من حيث جسم المدرسة امَّا روحها اي تعليم التلامذة وتثقيف عقولهم وتهذيب اخلاقهم وتكبير نفوسهم وجعلهم رجالاً يعتمدون على جدهم وتعتمد بلادهم عليهم فهو الشيء الاهم ولهُ فيهِ ايضًا اليد الطولى

اما من حيث التعليم بالذات فرؤساء المدارس لا يعلّمون الاَّ قليلاً لان اكثر عملهم اداري وقد كان الدكتور بلس يدرّس بعض العلوم الرياضية في اول الامر ثم جعل يدرِّس الفلسفة العقلية والادبية واخيرًا اقتصر على تدريس الفلسفة الادبية . وطريقتهُ في التدريس بسيطة وهي توضيح الموضوع بالامثلة الحسية المنتزعة من اعمال الناس وترك التلامذة يستنتجون كليات العلم لانفسهم . ويلي ذلك او يقدَّم عليهِ الاهتمام بانتقاء المدرسين واطلاق الحرية لهم فاذا رأى مدرّسًا قائمًا بما يجب عليهِ اطلق لهُ الحرية التامَّة ولم يعترضهُ في شيء لا في التدريس ولا في ما يراهُ لازمًا من ادارة التلامذة فكأَن كل مدرّس مستقلٌّ بنفسهِ في ما خُصَّ بهِ تدريسهُ . واما اذا وجدهُ غير كفء للتدريس فلا اسهل من ابدالهِ بغيرهِ ولذلك فاكثر الذين درَّسوا في المدرسة الكلية بذلوا جهدهم في انجاح تلامذتهم غير مقيَّدين بالقوانين المدرسية التي تغلُّ

يدي المدرّس في الغالب وتجعلهُ يهتم بالعرض لا بالجوهر . فالمدرّس الذي لهُ اسلوب حسن للتدريس يفلح في عملهِ والذي ليس لهُ اسلوب حسن لا يفلح ولو حوّطتهُ بالف قاعدة وقانون

ومع اطلاقهِ الحرية للمدرسين وتركهم من غير سيطرة لم يكن يغفل عمّا يبدو من التلامذة من امارات الذكاء والخمول والاجتهاد والكسل فينقّي المدرسة من الخاملين الكسالى باسقاطهم او بمنع المساعدة المدرسيَّة عنهم حتى يتركوها من انفسهم واما الذكي المجتهد فيزيد رغبتهُ واجتهادهُ بكلمة يقولها لهُ في محلها ولا يطرئهِ ولا يكرر المدح عالماً ان الشيء اذا قلَّ عزَّ . اختار احد تلامذتهِ لتدريس الفلسفة الطبيعيَّة واتفق بعد سنة من الزمان ان سألهُ ذلك المدرّس قائلاً ما جعلك تختارني لهذا المنصب فقال لهُ رأيتك وانت تلميذ تصنع آلةً تمثل مطحنة باركر فعلمت انك تميل الى العلوم الطبيعية الامتحانية ومن كان لهُ ميل طبيعي الى علم من العلوم افلح فيهِ متى تيسَّرت لهُ وسائلهُ فحفظت المثال الذي صنعتهُ وبقي اسمك وفعلك في ذهني حتى اذا احتاجت المدرسة الى من يدرِّس فيها الطبيعيات اخترتك لهذا المنصب

نأتي الآن الى تهذيب الاخلاق وهو عندنا اهم من تثقيف العقول وسبيلهُ اليهِ الوعظ والارشاد في ايَّام الآحاد وتدريس الآداب الدينية لكل التلامذة ولو مرةً في الاسبوع والسهر المستمر على سيرتهم داخل المدرسة وخارجها . وطريقتهُ في ذلك كلهِ مثل طريقتهِ في التعليم والادارة اي الارشاد والمراقبة من غير اكراهٍ ولا تشديد حتى يشعر التلميذ انهُ مقود الى الخير من نفسهِ لا بزمامٍ ولا بشكيمة . فاذا وعظ ذكر الحقائق واوضحها بالامثال ولم يكثر من التوبيخ والتقريع واذا علَّم القواعد الدينيَّة لم يستخف باعتراضات التلامذة ولا زجرهم اذا ابدوا ما في نفوسهم من الشكوك بل عاملهم في ذلك كأنهُ واحد منهم وكانهُ هو واياهم من طلبة الحق على حدٍّ سوى ولذلك لا نظن ان احداً من تلامذتهِ يقدر ان يقول عنهُ انهُ ضغط على افكارهِ يوماً من الايام

وكثيراً ما كان يخرج في الليالي ويطوف في ازقَّة المدينة فاذا رأى تلميذاً خارج المدرسة في غير الوقت الذي يسمح لهُ فيهِ بالخروج نظر اليهِ نظرةً يشعر التلميذ منها بخطاءهِ وبأن عين رئيسهِ غير غافلة عنهُ فيعود بالخجل من نفسهِ والندم على ما فعل الا اذا كان معوجًّا لا يرجى تقويمهُ. وهذا كان شأنهُ دائماً كلما رأى تلميذاً اخلَّ بما يجب عليهِ فانهُ كان يريهِ خطأهُ من طرف خفي حتى يستحي منهُ ويرجع عنهُ من نفسهِ

استدعى احد التلامذة المنتهين مرةً وقال لهُ شكاك الناظر اليَّ انك لم تطعهُ فاستغربت

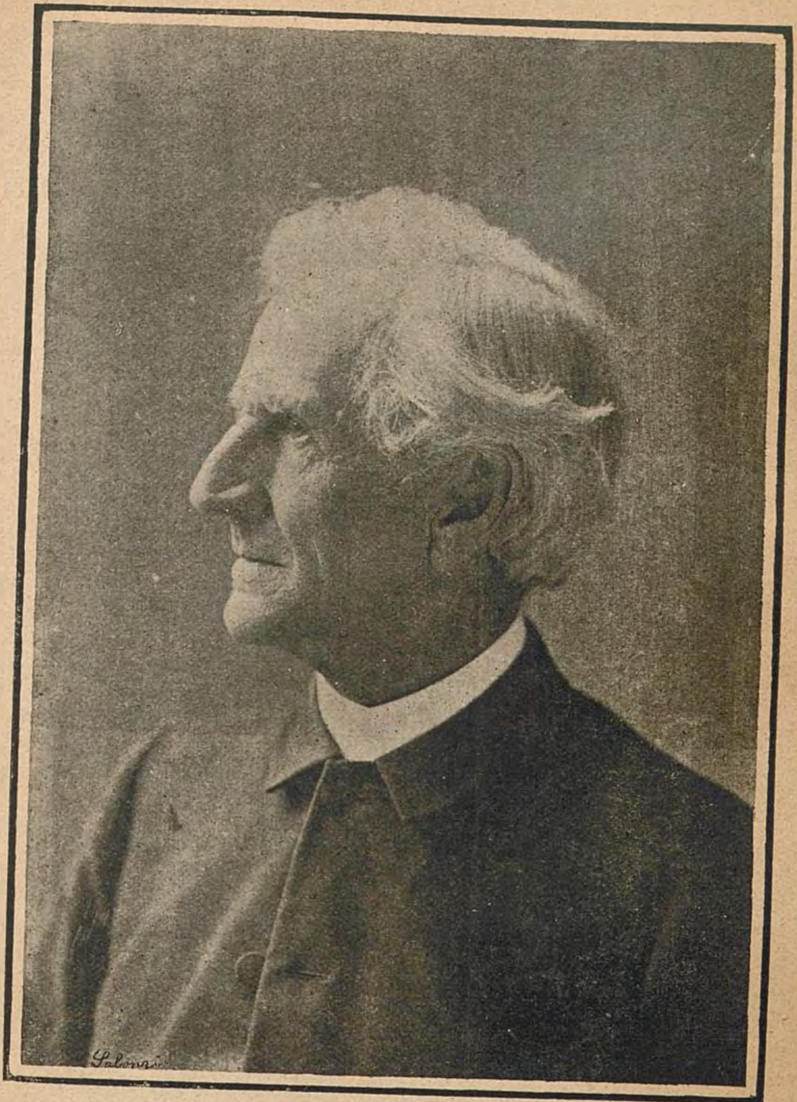

الدكتور بلس
رئيس المدرسة الكلية السورية الاول

ذلك منك لانني لم اسمع عليك شكوى قبل الآن . فقال التلميذ يقول المثل العربي ان شئت ان تُطاع فسَلْ مايستطاع ومن ثم تعلم لماذا لم اطع الناظر . فتبسَّم وقال لهُ كفى . ولم يتم الناظر السنة . واضطرت فرقة (صف) منتهية ان تخرج من المدرسة لامر ما وابى البوَّاب ان يفتح لها الباب ولم يكن الرئيس في المدرسة لتستأذنهُ ولم يسمع البواب لاحتجاجها فاخذت المفتاح منهُ غصباً وفتحت الباب وخرجت . ورُفع الامر الى الرئيس فقال ان البواب محقٌّ لانهُ غير مأذون في فتح الباب لاحد في ذلك الوقت والفرقة محقة في خروجها لانني ابنت لها من اول السنة اني اعتمد على حريتها وشرفها ولكنها اخطأَت في اخذ المفتاح من البواب ويجب ان تعتذر اليهِ عن ذلك . فاعتذرت وانتهى المشكل

اما تكبير النفوس وهو الامر الاهم حتماً ولاسيما في بلاد المشرق حيث صغرت النفوس بمامرَّ عليها من ازمنة الاستبداد فلا نظنُّ ان احداً يفوقهُ فيهِ او يضارعهُ . دخل غرفة الدرس العمومي مرة وكان التلامذة كلهم مجتمعين فيها وقال لهم ارسل الوزير الفلاني يقول انهُ آتٍ الآن لزيارة المدرسة ولو جاء رئيس اميركا او ملكة انكلترا لقلت لكم لا تقفوا بل ابقوا مكبين على دروسكم كما انتم الآن ولكن لا بدَّ من مراعاة احوال الزمان والمكان فاذا لم تقفوا لهذا الوزير عدَّ ذلك اهانة مقصودة فارجو ان تنهضوا حال دخولهِ وانا ادخل معهُ واشير اليكم لتجلسوا فاجلسوا . فشعر كل واحد منا كأَن ما على عاتقهِ من احمال الاستبداد حُلَّت عراهُ فزال الضغط عن نفسهِ وحاولت الاتساع والانتشار . وحدث بعد ذلك بسنوات كثيرة ان اتى امبراطور برازيل الى بيروت وزار المدرسة الكلية ودخل غرف التدريس التي كنَّا ندرّس فيها فوقف لهُ التلامذة اجلالاً من تلقاء انفسهم فاشار اليهم بكلتا يديهِ ليجلسوا ثم قال ان العلم اشرف من كل شريف فلا تكرموا احداً عليهِ . وكانهُ اعاد على مسامعنا كلام الرئيس الذي سمعناهُ في صبانا . ما اعظم الفرق بين نفوس تلامذة يسمعون هذا الكلام ونفوس تلامذة تديرهم ايدي المدرسين كانهم جماد لا ارادة فيهِ ولا حياة

وكل ما سمعناهُ من كلام الدكتور بلس مع تلامذتهِ وما رأَيناهُ من معاملتهِ لهم الاَّ في حادثة واحدة(١) يدلُّ على انهُ يتوخَّى الامر الذي اشرنا اليهِ آنفاً وهو تكبير نفوس التلامذة وجعلهم يشعرون انهم رجال يجب عليهم ان يعتمدوا على انفسهم

ومن اقوم السبل التي طرقها لهذه الغاية وساعدتهُ فيها زوجتهُ الفاضلة دعوتهُ التلامذة الى

(١) والحادثة التي اشرنا اليها ثورة التلامذة التي ترتبت على استعفاء بعض الاساتذة . والمسألة لم تجلَ غوامضها الاَّ بعد حدوثها و بعد ان سبق السيف العذل

بيتهِ من وقت الى آخر لكي يقابلوا كبار السيَّاح وكرام الزوَّار فيعرّفهم بعضهم ببعض ويقدم لهم ما يقدَّم في مثل هذه الاجتماعات من الشاي والقهوة كأَنهم والزوَّار واهل البيت في منزلة واحدة فيجلس التلميذ مع امير البحر او مع القنصل الجنرال على مقعد واحد ويتناولان الشاي عن طبق واحد ويتحادثان ويتسامران كانهما صديقان متماثلان ويمرُّ الرئيس فيكلم التلميذ كما يكلم غيرهُ من زوَّارهِ وتمر زوجتهُ فتحذو حذوهُ . هذه الدعوات غير كثيرة ولكنها اذا حدثت مرةً في السنة تكفي لتبثَّ في نفس التلميذ روح الترفُّع والاستقلال وتضرم في قلبهِ الحب لرئيسهِ والرغبة في ارضائهِ

واهتمامهُ بالتلامذة وهم في المدرسة لا ينقطع بعد خروجهم منها فيكاتبهم ويكاتبونهُ . وهم يقلُّون من مكاتبتهِ طبعاً لعلمهم بكثرة اشغالهِ ولكننا لا نظن ان احدًا كتب اليهِ فلم يجبهُ حالاً. ولا يخلو كتاب لهُ من نكتة او ملحة فلا يشعر التلميذ انهُ من رئيس الى مرؤُوس. وقد منحهُ الله ذاكرة قوية فيتذكَّر كل تلامذتهِ ولو لم يقيموا في المدرسة الاَّ وقتاً قصيرًا وقد يتذكر اسماءهم ايضاً واذا قابلهم بعد غربة طويلة عانقهم كما يعانق الاب ابنهُ على خلاف عادة الغربيين

وقد استعفى الآن من رئاسة المدرسة الكلية فاختير ابنهُ الدكتور هورد بلس رئيساً لها بدلاً منهُ كما ذكرنا قبلاً ورأى تلامذتهُ وغيرهم من وجهاء السوريين ان يقدموا لهُ تذكارًا علامةً شكر لهُ . واول من جمع كلمتهم على هذا الامر الاستاذ الفاضل الدكتور ورتبات فجمع تلامذتهُ وغيرهم من الوجهاء في سورية مبلغاً من المال صنعوا منهُ وساماً كبيرًا من الذهب قلدوهُ بهِ في احتفال حافل في التاسع عشر من شهر يونيو الماضي وقد كتبوا على احد وجهيهِ بالعربية ما يأتي " الى الدكتور دانيال بلس زعيم مؤَسسي المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت واول رئيس تولى رئاستها من سنة ١٨٦٦ الى ١٩٠٢. انشأَهُ فريق من متخرجي المدرسة وسواهم تذكارًا لجميلهِ وفضلهِ عند تقاعدهِ عن الرئاسة في ١٩ حزيران سنة ١٩٠٢ " ونقش على الوجه الآخر فحوى ذلك بالانكليزية وفي اعلاهُ صورة ارزة من ارز لبنان وهي شعار المدرسة وصنعوا آنية من الفضة قدموها الى زوجتهِ واعطوهُ ما بقي نقودًا وخطبوا الخطب الحسان عددوا فيها فواضلهُ . وطُلب من تلامذتهِ المقيمين في القطر المصري ان يشاركوا اخوانهم السوريين فاجتمعوا في ادارة المقتطف وقرروا عمل تمثال لهُ ينصب في دائرة المدرسة ويكتب عليهِ "تذكار للدكتور دانيال بلس رئيس المدرسة الكلية السورية الانجيلية الاول من تلامذتهِ" وجمعوا المال اللازم لذلك. وما اهتمام تلامذتهِ بتقديم علامة الشكر لهُ الاَّ ثمرة من ثمار الاخلاق النبيلة التي اهتم بانمائها في نفوسهم

وهو طويل القامة نحيف الجسم شديد العضل برَّاق العينين غزير شعر الراس بلغ الثمانين ولا يزال يمشي منتصباً ويركب فرسهُ ساعات متوالية كالشبان. فسح الله لهُ في الاجل واراهُ من ثمار اعمالهِ ما يملأُ قلبهُ سرورًا

وما غرضنا من نشر ما نشرناهُ عنهُ الاَّ ان يكون مرشدًا لرؤَساء المدارس حتى يقتدوا بهِ ويحذوا حذوهُ في تثقيف عقول التلامذة وتهذيب اخلاقهم وتكبير نفوسهم فينشأُوا رجالاً يُعتمَد عليهم وتنتفع بهم بلادهم . اما النهضة العلمية الادبية التي اشرنا اليها في صدر هذه المقالة فاستمرَّت عشرين سنة ثم خبت نارها بما ذُرَّ عليها من رماد المراقبة والتضييق وصار الشبان يهجرون البلاد حالما يتمون دروسهم الاَّ نفرًا قليلاً منهم ولله الامر

الله والعلم

اسرُّ الى المقتطف هذه الكلمة الفانية على هذه الدنيا الفانية واسألهُ ان يذيعها تمجيدًا لله وتنويهاً بالعلم الذي هو آية ملكهِ ورسولهُ الذي لا يموت في العالمين

ولئن وعظ الاسكندر الناس ساعة مماتهِ اضعاف وعظهم في حياتهِ ففي مرض الملك ادورد وهو يضطلع بالدولة التي يحسر الطرف في مواكبها ما فيهِ للنفوس مزدجر وما جمع الله فيهِ العبر

لِمَن ذلك المُلك الذي عزَّ جانبهُ ... لقد وعظ الاملاكَ والناسَ صاحبهُ
أَمُلْكٌ أَيا ادْوَرْدُ والمُلْك للذي ... يغار عليهِ والذي هو واهبهُ
اراد بهِ امرًا فجلَّت صدورهُ ... فأتبعهُ لطفًا فجلَّتْ عواقبهُ
رمى واستردَّ السهمَ والخلقُ غافلٌ ... فهل يتَّقيهِ خلقهُ او يراقبهُ
أَيبطلُ عيد الدهر من أَجل دُمَّلٍ ... وتخبو مجاليهِ وتُطوَى مواكبهُ
ويرجعُ بالقلب الكسير وفودهُ ... وفيهم مصابيح الورى وكواكبهُ
وتسمو يدُ الدهر ارتجالاً بيأسها ... الى طنب (الاقواس) والنصر ضاربهُ
ويستغفر الشعب الفخورُ لربهِ ... ويجمع من ذيل المخيلةِ ساحبهُ
ويحجب ربُّ العيد ساعةَ عيدهِ ... وتنقص من اطرافهنَّ مآدبهُ
أَلا هكذا الدنيا وذلك ودُّها ... فهلاَّ تأنَّى في الاماني خاطبهُ
اعدَّ لها ادوردُ اعيادَ تاجهِ ... وما في حساب الله ما هو حاسبهُ
مشت في الثرى انباؤُها فتساءلت ... مشارقهُ عن امرها ومغاربهُ

وكاثر في البر الحصى من يجوبهُ … وكاثر موج البحر في البحر راكبُهْ
الى موكبٍ لم تخرجِ الارضُ مثلهُ … ولَنْ يتهادى فوقها ما يقاربُهْ
اذا سار فيهِ سارت الناس خلفهُ … وسوّت مقادير الملوك ركائبُهْ
تحيطُ بهِ كالنمل في البر خيلهُ … وتملأ آفاقَ البحارِ مراكبُهْ
نظام المجالي والمواكبِ حلّهُ … زمانٌ وشيك ريبهُ ونوائبُهْ
فبينا سبيل القوم أمنٌ الى المنى … اذا هو خوفٌ في الظنون مذاهبُهْ
اذا نبأُ الاعياد في كل مسمعٍ … تجوبُ الثرى شرقًا وغربًا جوائبُهْ
رجاءٌ فلم يلبث بخوفٍ فلم يدم … سلِ الدهر ايُّ الحادثين عجائبُهْ
فياليتَ شعري اين كانت جنودهُ … وكيف تراخت في الفداء قواضبُهْ
ورُدّت علي اعقابهنّ سفينهُ … وما ردّها في البحر يومًا محاربُهْ
وكيف افاتتهُ الحوادث طلبةً … وما عودتهُ ان تفوت رغائبُهْ
لكَ المُلْكُ يا من خصّ بالعزّ ذاتهُ … ومن فوق آراب الملوك مآربُهْ
فلا عرش الاّ انت وارث عزّهِ … ولا تاج الاّ انت بالحق كاسبُهْ
وآمنتُ بالعلم الذي منكَ نورهُ … ومنكَ ايادِيهِ ومنكَ مناقبُهْ
تؤمّنُ من خوفٍ بهِ كلّ غالبٍ … علي امرهِ في الارض والداء غالبُهْ
سلوا صاحبَ الملكَيْن هل ملكَ القوى … وأسْدُ الشرى تعنو لهُ وتحاربُهْ
وهل دفع الداءَ العضال وزيرهُ … وهل حجبَ البابَ الممنع حاجبُهْ
وهل قدّمتْ إلاّ دعاءً شعوبهُ … وساعف إلاّ بالصلاةِ أقاربُهْ
هنالك كانَ العلمُ يبلي بلاءهُ … وكان سلاحُ العلم تغني تجاربُهْ
كريم الظبي لا يقربُ الشرَّ حدهُ … وفي غيرهِ شرُّ الورى ومعاطبُهْ
اذا مرّ نحو المرء كانَ حياتهُ … كاصبع عيسى نحو ميت يخاطبُهْ
وأيسرُ من جرح الصدود فعالهُ … وأسهل من سيف اللحاظِ مضاربُهْ
عجيب يرجّي "مشرطًا" او يهابهُ … مَن الغربُ راجيهِ مَن الشرق هائبُهْ
فلو تُفتدى بالبيض والسمر مديةٌ … لألقت قناها في البلاد كتائبُهْ
ولو ان فوق العلم تاجًا لتوّجوا … طبيبًا لهُ بالامس كان يصاحبُهْ
فآمنت باللهِ الذي عز شأنهُ … وآمنت بالعلم الذي عزّ طالبُهْ

مصر — احمد شوقي

انتقاء الالفاظ

(تابع ما قبلهُ)

عندئذٍ قال واحدٌ من الحاضرين سمعت بيتين مُدح بهما احد الامراء من راعٍ وصفهُ فيهما بحفظ العهود والكرم والصبر على الشدائد وصحّة العزيمة في مقارعتها ولعلهما بقبح التعبير فيهما يدخلان في هذا الباب والبيتان هما

وانت ككلبٍ بحفظ الوداد وانت كدلوٍ كثير الزروبِ
وتصبر في الخطب صبر الحمارِ وتشبه تيساً بقرع الخطوبِ

قال آخر ان هذه المعاني جميلة والغاية حسنة محمودة الاَّ ان وضع الممدوح بين الكلب والحمار والتيس يخيّل انهُ بغلٌ او بعير

ثم قال آخر وكان مشتغلاً بالتقليب في ديوان المتنبي : ها قد عثرت على البيت الذي تمثلت بهِ للمتنبي وهو امعفرّ الليث الخ فلماذا قلت الليث الهصور على انها هنا الليث الهزَبر وهكذا كنت احفظها الاَّ انني لم أَرد الاعتراض الاَّ بعد التحقيق

قلتَ نعم ان الاصل كما تقول الاَّن كراهتي لهذه اللفظة جعلتني استبدلها بالهصور وامثال هذه اللفظة لا يروق استعمالها مهما حُفَّت بالقرائن والدلائل التي يقصد بها صرف المعنى عمَّا يذهب اليهِ الذهن عند سماعهِ

والالفاظ المقرونة عند العامَّة بمعنى قبيح غير قليلة في اللغة على حين ان معانيها اللغوية لا غبار عليها . وهي يحظر ايرادها في الكلام في اكثر المعارض وان تُسومح بها في البعض الآخر

فقال ماذا تريد بالمعارض قلت اريد ماهية السامعين والقراء قال او يوجب ذلك فرقاً قلت نعم قد يختلف تقدير الكلام باختلاف ذوق السامع وطبقتهِ من العلم وتذكر الحادثة يوم وقف رواة الشعراء في باب السيدة سكينة بنت الحسين اذ قالت لراوية جرير أَليس صاحبك الذي يقول

طرقتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلامِ

وايُّ ساعةٍ احلى من الزيارة بالطروق قبَّح الله صاحبك وقبح شعرهُ فهلاَّ قال

طرقتكَ صائدة القلوب وانَّ ذا وقت الزيارة فادخلي بسلامِ

ثمَّ لما وقف الشعراء في باب عُمَر بن عبد العزيز يستأذنون وجد لكل واحدٍ منهم عيوباً

ومنعهم عن ان يطأُوا لهُ بساطًا الى ان وصل الي جرير فقال أَليس هو القائل طرقتك الخ ادخلوهُ عليَّ فانهُ عفيف القلب واللسان . فتأَمل كيف لاجل البيت الواحد قد أُكرم صاحبهُ مرَّةً واهين اخرى فمن الناس من يطرب للفظ تتجرَّعهُ اذن الآخر ولا تسيغهُ . فقال ذكر البيانيون ايضاً ان المعاضلة مكروهة في الكلام وعنوا بها تراكب الحروف من شكل واحد في العبارة ومثلوا عليها بابياتٍ كثيرة مثل بيت المتنبي

تقلقلت بالهم الذي قلقل القوى   قلاقل همٍّ كلهنَّ قلاقلُ

الاَّ انهم لم يضعوا فارقًا بين الحروف التي يكرهُ تكرارها وعندي ان الحروف الرقيقة اذا كررت لا باس بها بل هي تزيد الكلام رونقًا وطلاوةً مثل " بسم القدوس نستفتح وباسعادهِ نستنجح سجية سيدنا السلطان حرست نفسهُ الخ " ومثل حرف الحاءِ في قولنا " ويحمي حوزةَ الحق الصحيحِ " وهو من البديع اللفظي المحبوب

قلت لا ارى كما ترى في هذا الامر لان تكرار الحرف الواحد وان كان رقيقًا يسهل التلفظ بهِ يشغل السامع بالصناعة اللفظية ويصرف ذهنهُ عن المعنى فضلاً عن انهُ يكون في تكرار الحرف الواحد التزام يشوش المعنى ويجعلهُ في كثير من المواقع ركيكًا سخيفًا واللسان يستثقل تكرار الحرف الواحد مهما كان ذلك الحرف رقيقًا مثل بيت اعشى قيس

وقد غدوتُ الى الحانوت يتبعني   شاوٍ مِشَلٌّ شلولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

قال احد الحاضرين : لوكان ما ذكرتم عن الالفاظ عيوبًا لما وقع بهِ نوابغ الكتاب والشعراء وانا اقول ان كل ما تمثلتم بهِ من اقوالهم وحسبتموهُ عليهم هفوات لهُ عندهم مسوّغات لولاها ما ارتكبوهُ

قلت ان تمحل الاعذار لهم ليس بالامر الشاقّ غير ان ذلك لا يتفق مع الحقيقة ولا يخرج عن حد التمويه ومغالطة النفس وقالت الحكماءُ لكل عالم هفوة والكمال صفة الهيَّة لا يستطيع الانسان بلوغها . قال احد العلماء " تلخيص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز والتشادق في غير اهل البادية نقص " وان التحذلق دليل الضعف والتقصير في شأو الفصاحة لان معناها الظهور والبيان لا الغموض والخفاءُ وكل من اغرب في كلامهِ يخرج عن حدها وانت لو راجعت كتب الادب وتعهدت العبارات الحاوية الغريب منها لوجدت اكثر معانيها ركيكة مبتذلة لا شيء فيها من التخيلات السامية والمرامي البعيدة . وغالب ما اطلعت عليهِ من العبارات او الابيات المشوَّهة بالغريب وجدت المعاني فيهِ تافهة والفكر مملولاً سقيماً واليك بعض الامثال نوردها استئناساً قال امرؤُ القيس واغرب

مسحٌ اذا بالسابحات على الونى أثَرنَ الغبار بالكديدِ المركَّلِ

ومعناهُ ان الجواد الذي يصفهُ لا يتعب كسائر الخيل وهذا المعنى المبذول الصغير لا يتحصل منهُ الاَّ بعد اعنات الرويَّة والتكهن الكثير كما يتضح بالمراجعة . ومثلهُ قول طرفة

فمرَّت كهاةٌ ذات خيفٍ جلالةٌ عقيلة شيخٍ كالوبيل يَلَنْدَدِ

يعني مرت ناقةٌ سمينة ضرعها ذو جلد تخصُّ شيخًا عدوًّا يشبه العصا وهو معنى ركيك بارد وابرد منهُ قولهُ

أمونٌ كالواح الاران نصأتها على لا حب كأنهُ ظهر برجدِ

وتحرير المعنى اني ضربت ناقتي بالعصا . فاكثر الكلام المغلق لا يكون وراءهُ معنى كبير لان من كانت معانيهِ سخيفة وافكارهُ ضعيفة يحاول اغلاقها والتعمية فيها بالفاظٍ ثقيلة وكلام غريب ليستر الركاكة كالذي يستر عيوب جسدهِ بثيابهِ ليحجبها عن الابصار اما من كان معناهُ ساميًا جليلاً فيلجُّ في ايضاحهِ باسهل العبارات ويرغب في بسطهِ باسلس الكلام حتى لا يفوت فهمهُ ايًّا كان من القراء ولذلك ترى جميع الابيات الحكمية التي ارسلت امثالاً والقطع التي التقطتها الآذان واحتوتها الاذهان من منثورٍ ومنظوم لا شيء فيها من الغريب النافر بل جميع الفاظها طيبة سائغة

وهذا الحكم يتمشى على المأثور عن فصحاء الجاهلية كما يتمشى على المحفوظ من كتابات بلغاء الاسلام . ومن العجيب انك عند ما تراجع القصائد الطويلة لشعراء الجاهلية تجد منها الابيات المأثورة لحكمتها والمحفوظة لبلاغتها كانها واحات مخصبة تحيط بها الرمضاء مثل قولهِ في لاميَّة العرب

لعمرك ما في الارض ضيق على امرئٍ سعى راغبًا او راهبًا وهو يعقلُ

ولي دونكم اهلون سِيدٌ عَمَلَّسٌ وارقطُ زهلولٌ وعرفاءُ جيأَلُ

كأن البيتين ليسا من لغة واحدةٍ . وكثير من ابيات القصيدة على حدّ البيت الثاني الاَّ اننا لا نرى الكتَّاب والخطباء قديمًا وحديثًا يتمثلون الاَّ بما كان منها على حدّ البيت الاول من شرف المعنى ورقَّة اللفظ

قال احدهم : سمعت من بعض الاصحاب ان الافرنج اليوم لا يفهمون الكتب المكتوبة في لغتهم منذ خمس مئة سنة فهل ذلك صحيح وما سببهُ

قلت : نعم ان ذلك صحيح انما تلك الكتب التي أُلِّفت منذ خمس مئة سنة والتي تشير اليها ليست مكتوبة في لغتهم بل في لغة اسلافهم الذين عاشوا في ذلك العهد وقد تغيَّرت

وتبدلت احوالها حتى صارت لغة اليوم بعيدة عن لغة ذلك الزمان وهم لا يحسبون انفسهم مقيدين بما استعملهُ اسلافهم من الكلام وعندهم ان كل جيل لهُ الخيار في الالفاظ التي انتهت اليهِ من الجيل الذي سبقهُ ان ينتقي منها ما يحتاج اليهِ وينبذ ما لا يروق لهُ استعمالهُ وكل لفظ مرَّ عليهِ نحو خمسين سنة وهو خارج عن استعمال الكتَّاب المشهود لهم بحسن الذوق يصير حريًّا بان يحسب مهجورًا خارجًا من دائرة اللغة وحجتهم ان عدم استعمال الكلمة دليل على الاستغناء عنها اما بفقدان الاحوال التي كانت تدعو اليها واما بالاستعاضة عنها بما هو خير منها للدلالة واذ ذاك لا يجوز الرجوع اليها الاَّ عند رجوع الاحوال التي وضعت لاجلها مشفوعةً بشهادة كاتب بليغ موثوق بحسن اختيارهِ

وكل لفظةٍ هجرها الكتَّاب البلغاء مئة سنة ولم يوردوها في كتاباتهم لا يبقى لها حق بالاستعمال بعد هذه المدة فما قولك بالالفاظ الثقيلة النافرة الوحشية التي مرَّ عليها اكثر من الف سنة ولم ترد في سطور كاتب بليغ وان وردت فلاغراضٍ بيانية بعيدة عما نحن فيهِ افنحسبها بعدُ من لغتنا ام نرمي بها عرض الحائط ونحذفها من معجم الاستعمال. كثير من الاسماء التي نجدها اليوم في الامَّهات بادت مسمياتها او تبدَّلت احوالها والاغراض منها واطلق عليها اسماءٌ جديدة معروفة بها فايراد مثل هذه الكلمات في كتابات اليوم داعٍ الى التشويش وقاضٍ على المعنى بالتقلقل

فقال آخر: قرأت ان ابا زيد الانصاري كان مرَّةً واقفًا بالقرب من اولادٍ يلعبون وكلما سمع منهم لفظةً جديدةً يسألهم عما يريدون بها ليحتفظ بمعناها فمرَّ بهِ شيخ جليل ورآهُ على هذه الحال مكبًّا على الالتقاط فقال لهُ "أعن هؤلاء المجانين تأخذ اللغة" فماذا تستنتج من هذه القصة ؟

قلت اما استنتجتَ انت منها شيئًا قال كلاَّ قلت اما انا فاحسب قولهُ هذا دليلاً على ان لغة الاولاد والرعاع كانت غير اللغة البليغة التي تحكى في المواضع الجدية وان العرب كان لهم ايام جاهليتهم لغة عاميَّة مثلما لنا اليوم يتكلمها اطفالهم وجهلاؤهم ويتسلَّى بها كبراؤهم في اوقات المزاح . مثال ذلك : ينقل عنهم انهم قالوا للكاذب مكذبان وهذه الصيغة نادرة في كلامهم الفصيح والذي اظنهُ ان الاولاد كانوا عند ما يكذب احدهم لا يكتفون بان يقولوا لهُ كاذب او كذاب فاضافوا الى المادة الاصلية حروفًا تطول بها الكلمة ويمتدُّ الصوت عند ما يقولون لهُ " يا مكذبان "

ويحتمل ايضًا ان ولدًا واحدًا قالها مرَّةً عفوًا فسمعها منهُ ابو زيد او الاصمعي او غيرهما

من الذين تحرَّوا جمع اللغة ودوَّنها بين لقطهِ حاسباً اياها غنيمة ثمينة . عند الانكليز اليوم لغة يسمونها Slang يحكيها ادباؤُهم في اوقات المزاح وفيها يستعملون الالفاظ لغير معانيها التي وضعت لها في اللغة او يجيئون بالفاظ جديدة مرتجلة يفهمونها من بعضهم بما يعهدونهُ من القرائن والاحوال السابقة بين المتخاطبين واظن ان الالفاظ القبيحة والمستهجنة في لغتنا أُخذت من مصادر كهذه وجامعوها كانوا يتسابقون ليأتي واحدهم بشيءٍ جديد لم يسمعهُ غيرهُ فكانوا ميالين لقبول كل ما سمعوا على علاتهِ . ويؤيد صحة هذا الرأي ما نراهُ في اللغة من كثرة الكلمات البذيئة مما يتعلق بما لا يستحسن التصريح بذكرهِ والراجح ان الشبان او غيرهم كانوا اذا ارادوا هاتيك المعاني يانفون من استعمال الالفاظ الصريحة الموضوعة لها فيكنون عنها بكلمات يهون التلفظ بها مستخدمة في معانٍ غير التي يريدون انما يفهمون المراد منها بالامائر والاشارات ولولا كراهة التطويل في هذا الباب لكنت اجيء عليهِ بالادلة والشواهد مما هو جارٍ في هذه الايام عند العرب والافرنج . فيتحصل معنا انهُ ليس كل ما جاء في المعاجم عربياً فصيحاً بل كثير منهُ لقط من غير مظانّ الالفاظ واللغة اليوم مفتقرة الى التعديل بالحذف كما هي مفتقرة الى الاضافة وعسى علماء اللغة يشتغلون بوضع معجم جديد يطرحون منهُ كل ما يرونهُ من هذا القبيل وهو اكثر من ربع المنتهي الينا

ثمَّ قال آخر : لا باس بهذه الشروط التي تذكرونها لحسن الالفاظ فاقل فوائدها انها ترشد الكاتب وتنير ذهنهُ الى ما يحسن استعمالهُ غير اني احسب القواعد والضوابط غير وافية بالغرض ولا يمكننا ان نضع دليلاً يهدي الكاتب في جميع المواقف الى الكلمات اللائقة ويدفعهُ عن المكروهة ولا ارى احسن من قول ابن الاثير في هذا المعنى (ثم جاء بالمثل السائر وقرأ) اعلم ان مدار علم البيان هو حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم وهذا التعليم وان كان في ما يلقيهِ اليك استاذا واذا سألت عما ينفع بهِ في فنهِ قيل لك هذا فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعاً واهدى بصرًا وسمعاً وهما يريانك الخبر عياناً ويجعلان عسرك في القول امكاناً وكل جارحة منك قلباً ولساناً فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك وما مثَلي في ما مهدتهُ لك من هذه الطريق الاَّ كمثل من طبع لك سيفاً ووضعهُ في يمينك لتقاتل بهِ وليس عليهِ ان يخلق لك قلباً فان حمل النصال غير مباشرة القتال

وانما يبلغ الانسان غايتهُ ما كلُّ ماشيةٍ بالرحل شملالُ

قلت هذه حقيقة لا يرتاب في صحتها فقد قالوا " اختيار المرء قطعةٌ من عقلهِ " وذكر احدهم عدة اشياء تدلُّ على عقول اصحابها منها ان الكلام يدلُّ على عقل المتكلم وقال الشاعر

قد عرفناك باختيارك اذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

وصاحب الذوق السليم والفطرة البيانية اذا كان لهُ معرفة بالالفاظ ووقوف على معانيها الصحيحة يكون الكلام لديهِ مثل المخاريق بايدي اللاعبين يصرفهُ كيف شاء وشاءت البلاغة فيجيء بالالفاظ في مواضعها المستحكمة وتظهر لك في جملها ارسى من الجبال بحيث لا يمكن تبديلها بما هو احسن منها . تراهُ اذا افتخر يجيء بالالفاظ الجزلة الفخيمة التي تشعر معها بالقوة وتنبه في فكرك مراكز الشدَّة واذا تغزل يسمعك الكلام الرقيق اللطيف الذي يسترق عواطفك وينفرد بخيالاتك صاعدًا بها الى مثال الجمال واذا رثى يورد من الالفاظ ذات الرنات الشجية ما يسكب نفسك ويهيج حزنك واورد لك مثالاً من شعر محمود سامي باشا قال مفتخرًا

سواي بتحنان الاغاريد يطربُ وغيريَ باللذاتِ يلهو ويعجبُ
وما انا ممَّن تأسر الخمرُ لبَّهُ ويملك سمعيهِ اليراعُ المثقَّب
ولكن اخوهمٍّ إذا ما ترجَّحت بهِ سورةٌ نحو العلا راح يدأبُ
نفى النوم عن عينيهِ نفس ابيَّة لها بين اطراف الاسنة مطلبُ
بعيد مناط الهمّ فالغرب مشرقٌ اذا ما رمى عينيهِ والشرق مغربُ
لهُ غدَواتٌ يتبع الوحش ظلَّها وتغدو على آثارها الطير تنصب
ومن تكن العلياء همة نفسهِ فكلُّ الذي يلقاهُ فيها محبَّبُ
اذا انا لم اعطِ المكارم حقها فلا عزَّني خالٌ ولا ضمني ابُ
ولا حملت درعي كميتٌ طمرَّةٌ ولا دار في كفي سنان مذرَّب
خلقت عيوفًا لا ارى لابن حرَّةٍ لديَّ يدًا اغضي لها حين يغضبُ
فلست لامرٍ لم يكن متوقعًا ولست على شيءٍ مضى اتعتَّبُ
اسير على نهج يرى الناس غيرهُ لكل امرىءٍ في ما يحاول مذهبُ
وبحر من الهيجاء خضتُ عجاجهُ ولا عاصم الاَّ الصفيح المشطَّبُ
تظلُّ بهِ حمر المنايا وسودها حواسر في الوانها تتقلبُ
توسطتهُ والخيل بالخيل تلتقي وبيض الظبى في الهام تبدو وتغربُ
فما زلت حتى بيَّن الكرُّ موقفي لدى ساعةٍ فيها العقول تغيَّبُ

الى آخر القصيدة على هذا النمط من سموّ المعاني وحسن التعبير وفخامة الالفاظ . وقد اختار لمعانيهِ من الكلمات اجزل ما يوجد في اللغة فجاء كلامهُ غاية في الفصاحة ومطمحًا في البلاغة . ثم انظر كيف تختلف الفاظهُ وتتبدل حروفهُ عند ما يختلف الموضوع قال يصف الحمام

فما راعنا الاَّ حفيف حمائمٍ لها بين اطراف الغصون هديرُ
نواعم لا يعرفن بؤْس معيشةٍ ولا دائرات الدهر كيف تدورُ
كأَنَّ على اعطافها من حبيكها تمائمَ لم تعقد لهنَّ سيورُ
خوارج من ايكٍ دواخل غيرهِ زهاهنَّ ظلٌّ سابغٌ وغديرُ
اذا غازلتها الشمس رفَّت كأَنما على صفحتيها سندسٌ وحريرُ

فهو في هذا المقام يمثل لك الحمام باطلى الالفاظ وارقها وهذا التلاعب والتنقل في انتقاء الكلام بحسب مقتضى المعاني هو حدُّ الجمال ومنتهى حسن البيان

فقال كنت مرَّة في مجلس مع فريق من الادباء فعرض لي جملة استعملت فيها كلمة الاكفاء فانتقض عليَّ بعضهم بان هذه اللفظة من الغريب الذي لا يروق استعمالهُ أَليس في قولهِ هذا مبالغة وتطرف في ما هو الغريب ؟

قلتُ ان الفريق الذين كنتَ معهم ليسوا من الادباء لانهم لو كانوا شمُّوا رائحة اللغة ما اعترضوا على الاكفاء وهذا هو الطرف الآخر من الركاكات التي وصلنا اليها وقد كاد الداء بها يصير عضالاً لولا ان قام اليهِ فريقٌ من ادباء هذا الجيل الذين عمروا ديار اللغة بعد عفائها. ونحن الآن في زمانٍ تضيق بهِ الدنيا على محترف حرفة الادب ولا رجاء يتعلَّل بهِ طالب اللغة للارتزاق ومهما اكثر الاديب من تقييد شواردها واصطياد اوابدها وحشد في عقلهِ من العبارات البليغة والكلام الفصيح تبقى سبل الاجتراح ضيقة عليهِ ومنافذ التعيُّش مسدودة في وجههِ . ولذلك ترى غالب طالبي العلم راغبين عن هذه الخطة منهُ ضانين باوقاتهم عن بذلها في قراءة كتب الادب وحفظ الكلام الفصيح . تجد اكثر شبان هذا الزمان الذين تخرَّجوا في المدارس العالية قد صرفوا جلَّ اهتمامهم في تحصيل اللغات الاجنبية ودرس آداب لغة الافرنج فيشبون على الذوق الاوروبي لا يعرفون من العربية الاَّ ما كان مبذولاً من الكلام الذي يقرأُونهُ في الصحف اليومية او يسمعونهُ من امثالهم فاذا عرض لهم يوماً ان سمعوا او قرأُوا كلاماً لا يفهمونهُ رموا كاتبهُ بالتحذلق والتقعُّر وحسبوهُ من غريب الالفاظ التي يحظر استعمالها . ولو اقتصر الكتاب على ايراد ما يعرف امثال هؤُلاء من الالفاظ لضاقت عليهم دائرة اللغة وتعذرت مسالك التعبير . وداء الركاكة هذا اشدُّ من داء التحذلق وافشى منهُ في هذا الزمان وارى الكلام فيهِ جديرًا بالافاضة فاقف عنهُ الآن راجيًا ان اعود اليهِ في فرصة اخرى

فارس الخوري

محمد علي باشا

(تابع ما قبلهُ)

كتب المستر باركر في اول يونيو سنة ١٨٣٠ الى القنصل الجنرال لدولتهِ في الاستانة العلية يقول :

قال محمد علي في ديوانهِ بالامس انهُ ينتظر مجيء الاسطول العثماني عليهِ لان السلطان طلب منهُ مرافئ مصر الثلاثة. وانهُ هو اي محمد علي غير عازم على تسليم هذه المرافئ بل هو قادر على حمايتها . ولا ادري هل نُقل اليهِ هذا الخبر حقيقة من الاستانة او هو ذكرهُ من عندهِ ليسبر غور رجالهِ لانهُ لم تمضِ الاَّ ايام قليلة منذ جاءهُ فرمان التثبيت من الباب العالي لهُ ولابنهِ

وكتب قبل ذلك في ١٨ مايو يقول :

ان الاستعداد للحرب قائم على ساق وقدم مع ان فرمان التثبيت جاء الى الباشا والى ابنهِ يوم عيد الاضحى في الاسبوع الماضي

وكتب الى امير البحر ملكلم في الثالث من شهر يوليو يقول :

اخبرني الباشا منذ بضعة ايام ان عمق مدخل المرفإ سبع وعشرون قدماً وان اكبر البوارج الحربيَّة لا تحتاج الى اكثر من خمس وعشرين قدماً ولذلك لم يجد صعوبة في ادخال اكبر بوارجهِ الى المرفإ واخراجها منهُ اذا كان البحر رهوًا ثم قال لي : " اني لا اقتنع بشيءٍ ما لم اختبرهُ بنفسي ولا احكم باستحالة شيءٍ ما لم ارَ بالاختبار انهُ غير ممكن ألا ترى ان امير البحر برون الفرنسوي كان يمكنهُ ان يدخل المرفأ بسفنهِ كلها حتى الاوريون ولكن قيل لهُ ان الماء في المدخل غير كاف فصدَّق هذا القول وذهب الى ابي قير فاتلفتم عمارتهُ ". وثق ايها الاميرال ان مقدرة محمد علي تفوق الوصف وقد بنيت حكمي هذا على ما عرفتهُ بنفسي من الاحاديث التي حدثني بها على انفراد . (وكان المستر باكر عارفاً باللغة العربيَّة متقناً لها)

وكتب اليهِ قبيل ذلك يقول :

لا بدَّ من ان يكون قد بلغك مجيءُ المسيو له بارون دتيلور الى هنا ومعهُ هدايا كثيرة الى الباشا لكي يطلب مسلَّتي لقصر باسم مدينة باريس وقد سمح لهُ الباشا باخذهما ولما اطلعني على ذلك قال لي ولكنني ابقيت مسلَّة الكرنك للانكليز وهي اجمل المسلات كلها

وبقي المسيو له بارون نحو شهرين قبلما اذن لهُ في مقابلة الباشا واخيرًا نال منهُ ما جاء

محمد علي باشا

ابرهيم باشا

لاجلهِ وجاءت سفينة الدرومدير منذ شهر ومحمولها الف طن لكي تنقل احدى المسلتين

وفي السادس والعشرين من الشهر الماضي اتى برتو افندي وزير الخارجيَّة الاسبق فقابلهُ الباشا بالاكرام الواجب لمقامهِ. والغرض من مجيئهِ اقناع الباشا برضى السلطان عنهُ واخذ الجزية وما يعطيهِ اياهُ الباشا هبة "بخشيش". وكان بوغص يكلمني عنهُ بالامس فقال لي انهُ من نوابغ رجال الاستانة

ثم كتب في ٤ سبتمبر يقول: عاد برتو افندي الى الاستانة ومعهُ خمسون الف ريال هبة لهُ وخمس مئة الف ريال للسلطان من اجل ولاية كريت التي انعم بها على الباشا. والباشا يستعدُّ الآن لارسال خمسة آلاف جندي الى كريت وسيتبعها بخمسة آلاف جندي أُخرى وانا واثق انهُ يجعل الاروام يلقون سلاحهم من غير حرب ثم يحسن معاملتهم حتى لا يندموا على ما فعلوا

وقد شرع في بناء بارجة اخرى محمولها ١١٠ مدافع وسمَّاها مدينة الاسكندرية وذبحت جاموسة يوم تسميتها على جاري العادة

وكتب في ٧ سبتمبر الى لورد بردو يقول: لقد سرَّ الباشا سرورًا عظيمًا بولاية كريت وهو يتكلَّم الآن عمَّا ينويهِ لها من الاصلاح فهو عازم ان يقيم فيها المنائر (الفنارات) والترسانات ويزرع الحراج لكي يبني من اشجارها السفن ويتَّجر بخشبها ومن غرضهِ ان ينشئ مجلسًا في الجزيرة يدخل فيهِ شيوخ الاروام ومن كلامهِ لي في هذا الصدد قولهُ "وسترى ان حالهم تكون اصلح في حكمي منها في حكم بلادهم الجديد" والمرجح عندي ان الاختبار يؤيد قولهُ

وكتب الى لورد بردو في اول يوليو سنة ١٨٣٠ يقول: ان الباشا مهتمٌّ جدًّا ليعرف ما آلت اليهِ حملة فرنسا على بلاد الجزائر ويحسب ان الداي سيقاومهم ببسالة وعندهُ ان فرنسا لا تستطيع الاستيلاء على الجزائر في اقل من سنة من الزمان

ومنذ ايام قال في ديوانهِ قولاً اهتمَّ لهُ الناس اهتمامًا عظيمًا وهو "انهُ وردت اليَّ اخبار سرية من الاستانة مفادها ان السلطان عازم على الايقاع بي ولكن الله اكبر وسنرى على من تدور الدائرة". ثم امر ان يؤتى بالف رجل لانشاء طابية امام قصرهِ في راس التين وارسل واستدعى ابرهيم باشا وامرهُ ان يستعرض جنودهُ ويبني الطوابي وامر شيندي المهندس ببناء ابراج التلغراف(١) من الاسكندرية الى دمياط لارسال الاخبار وصارت السفن تخرج للاستطلاع كل يوم فقلق اهالي الاسكندرية وصاروا يتوقعون ابتداء القتال كل يوم ولكن

(١) يراد بابراج التلغراف هنا الابراج التي كانت تبنى وتنقل الاخبار بها من برج الى آخر بواسطة النيران او الاعلام

لم تمضِ ثمانية ايام حتى ثبت ان السلطان غير ناوٍ شيئاً مما قالهُ الباشا وان غرض الباشا من ذلك اقناع السلطان انهُ على تمام الاهبة لمقاومتهِ

وكتب الى لورد بردو في ١٠ فبراير سنة ١٨٣١ يقول: أُنزلت بارجة من بوارج الباشا الكبرى في ٣ يناير فشمل السرور جميع الناس وكان الباشا في مصر فأُرسل خبر نزولها اليهِ بالتلغراف واسم هذه البارجة محمد علي ومحمولها ١١٠ مدافع وهي مصفحة بالنحاس. وعندهُ بارجتان مثلها اسمهما ابرهيم والاسكندرية وبارجة اخرى محمولها ٨٠ مدفعاً وسيشرع في بناء بارجة محمولها ١٣٦ مدفعاً وستكون اكبر بوارج الدنيا اي انها تكون اكبر من بارجة تبنى الآن في الاستانة بنحو قدم او قدمين. وقد تم انشاء الترسانة وجُلب اليها الماء من المحمودية وانشئت الشون الكبيرة لوضع الحبوب والبضائع

لما اتيت الى مصر سنة ١٨٢٦ كنت اسمع كل احد يقول ان الباشا لا يستطيع ان يبقى ستة اشهر اخرى ما لم يجرَّ الخراب على نفسهِ لانهُ شارع في اعمال كبيرة لا يستطيعها لقلَّة المال لديهِ ولا بدَّ لهُ من ان يتركها ولكنهُ اتمها وعمل اعمالاً اخرى اعظم منها اضعافاً مضاعفة. والحقيقة اننا لا نعلم مقدرتهُ المالية ولا بدَّ من انها كافية لكل الاعمال التي باشرها. وفي اليوم التالي لا نزال البارجة محمد علي أُنزل الى البحر كورفت جميل محمولهُ ٢٦ مدفعاً يراد ارسالهُ هدية الى السلطان

وكتب في ١٦ مارس سنة ١٨٣١ يقول: "وضع الخشب لبناء البارجة الكبيرة التي محمولها ١٣٦ مدفعاً وطول جسر قاعدتها مئتا قدم وعرض ضهرها نحو ستين قدماً. وقد بلغ قطن الباشا هذا العام ١٥٠ الف بالة ففاق محصول الاعوام السالفة وعندهُ زراعة واسعة من الخشخاش لاستخراج الافيون وهي على غاية النمو. والمقدار القليل من الافيون الذي استخرجهُ في العام الماضي كان جيداً جدًّا. وقد نجحت زراعة شجر التوت ايضاً لتربية دود الحرير ولا بدَّ من ان تصير مصر من البلدان التي تصدر الحرير. ولا يزال الايطاليون يديرون معامل السكَّر والروم. والمدبغة في رشيد تدبغ من الجلود ما يكفي احذية الجنود والبحَّارة كلهم اي قدر ما يصنع للجنود الانكليزية"

وانتشرت الكوليرا في مصر سنة ١٨٣١ ومات بها ٣٠٠٠ من الجنود ونحو ٩٠٠ من البحارة وكان اخو المستر باركر وكيلاً لهُ في القاهرة فهرب الى دمياط وكتب اليهِ المستر باركر من الاسكندرية في ١١ سبتمبر يقول دلَّ التلغراف اليوم على ان عدد الوفيات في القاهرة كان امس ٤٩ اما هنا فالتقرير الرسمي عن وفيات الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر من الشهر هو

٤٤و٥٦ و٣٨ و٤٠ وقد ثبتت لي الآن ان الكوليرا تعدي باللمس وان الفصد علاج لها. ونصيحتي لك ان تعتني بامر معدتك وامعائك واذا أُصبت ان تفصد حالاً ولا شبهة عندي ان ابنتي نجت بذلك من الموت

وكتب اليهِ قبل ذلك في ٥ اوغسطس يقول : ان الباشا بقي حتى اليوم ينكر فائدة الكورنتينا للوقاية من الكوليرا ولكن لما رأى فتكها بجنودهِ لجأ الى قناصل الدول ليختاروا خمسة منهم يؤلفون لجنة لمنع انتشار الكوليرا وقد جعلوني رئيساً لهذه اللجنة رغماً عني لا سيما واني واثق انهُ لا فائدة من الوسائل التي سنتخذها لذلك

ونجحت كريت في حكم محمد علي فحدثتهُ نفسهُ ان يستولي على سورية ويفعل فيها ما فعلهُ في كريت وكتب المستر باركر حينئذٍ الى المستر ابوت قنصل انكلترا في بيروت في ٢ يونيو سنة ١٨٣١ يقول : " لم تبقَ شبهة في ان الباشا قاصد حصار عكاء "

وفي خريف تلك السنة شاع في مصر ان محمد علي يقصد الاستيلاء على سورية وتحدث الناس بهذا الامر خاصتهم وعامتهم وامر ابرهيم باشا بعمل زينة في مصر مدعياً انهُ جاء اباهُ فرمان ولاية عكاء من الاستانة والحقيقة ان محمد علي عرض على السلطان مالاً طائلاً ليوليهُ سورية فلم يجب طلبهُ ثم ادَّعى ان عبدالله باشا والي عكاء اهانهُ فبعث جنودهُ لتأديبهِ وكتب المستر باركر في الرابع من فبراير سنة ١٨٣٢ يقول :

لا بدَّ لمحمد علي من فتح عكاء والاَّ دارت الدائرة عليهِ وقد مضى عليهِ الآن ثلاثة اشهر وجنودهُ حاصرة تلك المدينة ولا دليل على انهُ سيتمكَّن من فتحها قريباً ولقد عرض على الباب العالي مئة الف كيس جزية اذا اعطاهُ ايالة عكاء ودمشق . اما سفنهُ الحربيَّة فقد تعطلت ولا يمكن اصلاحها في اقل من اربعة اشهر او خمسة ". ثم ذكر جامع الكتاب ان عكاء فتحت في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ بعد ان مات كثيرون من الجنود المصرية بسبب البرد وسار ابرهيم باشا على دمشق بثلاثين الف مقاتل ففتحت ابوابها لهُ وارتدَّ محمد باشا بالجنود العثمانية الى حمص فتبعهُ ابرهيم باشا الى هناك واوقع بهِ وقتل الفين من الجنود العثمانية واسر ثلاثة آلاف ويقال ان عدد الجنود العثمانية كان ٣٥ الفاً وقتل من جنود ابرهيم باشا مئتان وجُرح مئتان . ولما بلغ المدائن السورية خبر انكسار الجنود العثمانية تسابقت الى فتح ابوابها لابرهيم باشا ففرَّ والي حلب ابرهيم بك بابلسي في ولايتهِ وفتح انطاكية باحد عشر رجلاً

ثم فصَّل جامع الكتاب حروب ابرهيم باشا في بلاد الشام وما يليها ممَّا لا غرض لنا باستيفائهِ الآن وكان المستر باركر لم يرضِ دولتهُ حينئذٍ فاحالهُ اللورد بامرستون على المعاش في ٥

فبراير سنة ١٨٣٣ وعين بدلاً منهُ الكولونل باترك كمبل قنصلاً جنرالاً في مصر . وعاد المستر باركر الى السويدية وهي على اربع ساعات من انطاكية وكان قد بنى دارًا بديعة فيها وغرس حولها جنة غناء ونزل ابرهيم باشا في هذه الدار لما دخل انطاكية وكتب اليهِ في ١٢ اغسطس سنة ١٨٣٢ يقول انهُ بات فيها واكل من اثمارها الشهيَّة وفضَّل السويدية على جنان الدنيا بعد دمشق

وفي مكاتيب المستر باركر التالية اشارات كثيرة الى ما فعلهُ ابرهيم باشا في بلاد الشام وسنأتي على خلاصتها في جزءٍ تالٍ

نبأ من اليابان

لا يختلف اثنان في ان اليابان صارت تعدُّ في مصاف الدول الاوربيَّة الكبرى مثل فرنسا وانكلترا والمانيا وروسيا من حيث جنديتها وبحريتها وانتظام حكومتها واهتمام شعبها بالصناعة والتجارة. وهذا الشأو لم تبلغهُ دولة اخرى شرقية ولا بلغتهُ الدول الغربية الاَّ بشق الانفس وبعد مئات من السنين فهي المثال الذي نضربهُ لملوكنا وحكامنا ورجالنا عموماً حينما نحثهم على الجري في خطَّة الاوربيين والقدوة التي يجب ان نقتدي بها اذا اردنا الفوز العاجل . ولقد كنا نودُّ ان نمضي الى تلك البلاد ونبحث عن اسباب ارتقائها فوقع لنا بالامس كتاب ان لم يغنِ عن الرحلة فهو خير ما نتعلل بها الى ان يقيّضها لنا الله كتبهُ المستر الفرد ستد بن المستر وليم ستد محرر مجلة المجلات الانكليزية بعد ان طاف في تلك البلاد ولقي جلَّة رجالها وباحثهم في احوال بلادهم . وقد شهد لهُ الوزير ايتو الياباني الشهير انهُ نطق بالصدق وقرَّر الحقائق لم يطرىءِ اليابانيين ولا بخسهم حقهم فرأينا ان نعتمد عليهِ في تقرير بعض الحقائق التالية وقدمنا لذلك مقدمة مسهبة ممَّا نشرناهُ في المقتطف في بعض السنين الماضية يتبيَّن منها تاريخ اليابان الى ان دخلت دور العمران الجديد

المقدمة

ما من شرقيٍّ انعم نظرهُ في تاريخ المشرق ورأى ما آلت اليهِ حال ممالكهِ بعد اتصال الاوربيين بها او جال في ممالك اوربَّا ورأى اركان عمرانها وانبساط ظل الراحة والرفاهة في ارجائها الاَّ تمنى ان ينهض الشرقيون كلهم الى مجاراة الاوربيين في فضائل عمرانهم ومسابقتهم الى كل ما يُحْمَد منهُ ليعود اليهم سالف مجدهم ويجاروا امم المغرب في نهضتهم الحديثة وقد

كتب الادباء في هذا الموضوع وحث الفضلاء على هذه المجاراة في مصر والشام والعراق وسائر ايالات الدولة العلية وبلاد فارس وممالك الهند منذ خمسين عاماً ولم يكفّوا عن الحث والترغيب لكن لم يقترن القول بالعمل في مملكة من هذه الممالك كما اقترن في بلاد يابان فانها كانت منذ اربعين عاماً موصدة الابواب دون العمران الاوربي ودون كل اجنبي بل دون اهاليها اذا خرجوا منها ثم ارادوا العودة اليها حتى اذا عبثت الرياح بسفينة من سفنها وكسرتها في بلاد اخرى تعذَّر على ملاحيها دخول بلادهم ثانية . لكنَّ هذه البلاد الشرقيَّة المتوغّلة في المشرق الاقصى التي لم تلتفت الى اقتباس شيءٍ من اساليب العمران الحديث الاَّ منذ ثلاثين عاماً صارت الآن داراً لحكومة دستورية منتظمة ونشرت التعليم والتهذيب في كل انحائها وجعلتهُ الزامياً فبلغ عدد التلامذة في مدارسها الابتدائية الآن اكثر من سبعة ملايين وسبع مئة الف تلميذ وشرعت في انشاء اول مكتبة (كتبخانة) عمومية سنة ١٨٧٢ فصار فيها الآن ٣٨ مكتبة عمومية فيها نحو ستمئة الف مجلد

وتشتمل بلاد يابان على خمس جزر كبيرة ونحو اربعة آلاف من الجزائر الصغيرة ومساحتها معاً ١٤٨ الف ميل مربع وكان عدد سكانها سنة ١٨٩٨ نحو ثلاثة واربعين مليوناً و٧٦٣ الفاً من النفوس واسم ملكها المالك فيها الآن متسوهيتو ويُطلَق عليهِ لقب الميكادو ويلقَّب باللغات الافرنجية امبراطوراً وهو من عائلة يابانية قديمة قيل انها تسلَّطت على بلاد يابان منذ ٢٥٦٠ سنة اي قبل التاريخ المسيحي بستمئة وستين سنة . وقد ولد سنة ١٨٥٢ ورقي الى عرش الملك سنة ١٨٦٧ واستتبَّ لهُ على حداثة سنهِ ان ينقل بلادهُ من الظلمات الى النور ويرقى بها من حضيض التأخر الى اوج التقدُّم كما سيجيء

وفي اواخر القرن الثاني عشر للميلاد ضعف شأن ملوك يابان وعظم شأن احد القواد فقبض على زمام الملك وتوالت الحروب الاهلية بين خلفاء هذا القائد والملوك الاصليين مدة اربع مئة سنة واخيراً استتبَّ الامر لقائد اسمهُ اياسو سنة ١٦٠٣ للميلاد فجعل مدينة يدو عاصمة ملكهِ وحكم خلفاؤهُ فيها الى سنة ١٨٦٨ فصارت من اكبر العواصم ولكن هؤُلاء الملوك او القواد (ويلقب كل واحد منهم باسم شوغن) لم يخلعوا الملوك الاصليين ولا نبذوا طاعتهم بحسب الظاهر ولا نفوا سلطتهم الدينية فبقوا ملوكاً بالاسم كما بقي الخلفاء العباسيون في آخر امرهم

ودخل البرتغاليون بلاد يابان سنة ١٥٤٣ للاتجار ونشروا فيها الديانة المسيحية فأَوجس اليابانيون منهم خيفة وطردوهم هم وكل الاجانب من بلادهم سنة ١٦٣٨ وابطلوا الدين المسيحي

ونكلوا باتباعهِ تنكيلاً حتى لم يكد يبقى لهُ اثر ومن ثم جعلت يابان تمنع دخول الاجانب منعاً تامًّا وظلت على هذه الحال الى سنة ١٨٥٣ حين جاءها الكومندور بري الاميركي باسطولهِ واضطرَّها الى عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الاميركية واقتفت دول اوربا اثر الولايات المتحدة وبعثت بسفرائها الى مدينة يدو عاصمة الشوغن

وكان كثيرون من اليابانيين ناقمين من الشوغن لانهُ كان يتجسس كل امورهم ويرتهن اولادهم ليضطرَّهم الى الطاعة وزادت نقمتهم منهُ لانهُ اباح دخول الاجانب الى بلادهم فنشبت الحرب بينهُ وبين انصار الميكادو (اي الامبراطور) سنة ١٨٦٧ فدارت الدائرة عليهِ وعُقِد النصر للامبراطور في السنة التالية ودانت لهُ البلاد كلها . وكان انصارهُ عازمين على طرد الاجانب من بلادهم واطّراح كل وسائل العمران الاوربي والعود بالبلاد الى حالتها الاولى لكن لما استتبَّ لهم النصر عدلوا عن هذه الخطة واطَّرحوا نير التقاليد القديمة وفتحوا ابوابهم للعمران الاوربي دفعةً واحدة وخطوا في ذلك الخطى الطوال وجُعلت مدينة يدو عاصمة المملكة كلها لكنها سميت توكيو اي العاصمة الشرقية وعاصمة الامبراطور الاولى وهي مدينة كيوتو سميت سايكاي اي العاصمة الغربية

وكان حكم الامبراطور استبداديًّا محضاً ولبث كذلك الى سنة ١٨٨٩ وحينئذٍ ابدلهُ بالحكم الدستوري وانشأَ لحكومتهِ مجلس اعيان ومجلس نواب . والتأم هذان المجلسان اول مرة سنة ١٨٩١ وفي مجلس الاعيان نحو ثلثمئة عضو وهو يشمل كل الذكور من العائلة المالكة اذا كان سنهم اكثر من عشرين سنة وكل الحائزين على لقب برنس او مركيز اذا كان سنهم اكثر من ٢٥ سنة وكل الذين يختارهم الميكادو للمراتب العالية بناء على شهرتهم العلمية وكل من ينتخب من الحائزين على لقب كونت او فيكونت او بارون وبعض النواب الذين ينتخبهم اصحاب الاملاك الكثيرة

وفي مجلس النوَّاب ٣٦٩ عضوًا ينتخبهم الاهالي ويحق لكل احد ان يكون منتخبًا اذا كان عمرهُ اكثر من خمس وعشرين سنة وكان يدفع من الضرائب اكثر من جنيه في السنة. وكل ١١٨ الف منتخِب ينتخبون عضوًا واحدًا . واعضاء هذا المجلس خمسة احزاب المتطرفون والاحرار والمعتدلون والمحافظون والمستقلون . وينقسمون الى قسمين كبيرين قسم يوافق الوزارة وقسم يعارضها مثل مجالس النوَّاب في اوربا . ولا يحق للوزراء ان يكونوا اعضاء في مجلس النوَّاب ولا في مجلس الاعيان ولكنهم يحضرونهما هم او نوَّابهم اذا دعت الحال الى تفسير امرٍ او ايضاح غامض ولا ينتخب لمجلس النوَّاب احد من موظفي البلاط ولا من القضاة ولا من

مراجعي الحسابات ولا من جباة الاموال ولا من ضباط الجيش او البوليس ولا من مستخدمي الحكومة ولا من خدمة الدين ولا من التلامذة ولا من المعلمين ولا من مقاولي الحكومة

وفي بلاد يابان طائفتان عظيمتان عاونتا الامبراطور على قهر الشوغن وهما طائفة ستسوما وطائفة تشوسيو . والطائفة الاولى معتادة القتال وكان شأنها متوقفاً عليهِ وعلى بسالة رجالها ولذلك لم ترضَ باستتباب الامن والاغضاء عما كان لها من المزايا فشقت عصا الطاعة وجاهرت بالعصيان سنة ١٨٧٧ وامتشق الحسام اربعون الف محارب منها فتغلَّب الامبراطور عليها بعد قتال عنيف واثخن فيها حتى بلغ عدد القتلى والجرحى منها ثمانية عشر الفاً فخلدت الى السكون من ذلك الحين . والطائفة الثانية ليست اقل بسالة من الاولى فيرى الامبراطور ان لا بدَّ لهُ من تقريب رؤساء هاتين الطائفتين والقاء مقاليد الاحكام اليهم فتجد اكثر المناصب الحربيَّة والبحرية بيد رجال من الطائفة الاولى واكثر المناصب الادارية بيد اناس من الطائفة الثانية

وكان امبراطور يابان متحجباً عن الناس تمام التحجب فلما تغيرت الاحوال منذ سنين قليلة ازال الحجاب وصار يقابل رجالهُ وزوَّارهُ كغيرهِ من ملوك اوربا وكذلك الامبراطورة زوجتهُ تقابل الزائرين والزائرات مثل ملكات اوربا

قالت كونتس جرزي الانكليزيَّة وقد زارت بلاد يابان سنة ١٨٩٣ مع غيرها من الرجال والنساء اننا طلبنا ان يباح لنا تقديم فروض الاحترام لجلالة الامبراطور وجلالة الامبراطورة فعُينت لنا الساعة العاشرة من النهار فالرجال منا قابلوا جلالة الامبراطور ثم ذهب الرجال والنساء معاً وقابلوا جلالة الامبراطورة وكانت لابسة حلة ارجوانية مزركشة بالذهب. وهي مشهورة في بلاد يابان بكثرة الصدقات وقد بلغها مرةً ان احد المستشفيات في حاجةٍ الى النفقات فتصدَّقت عليهِ بكل المال المعيَّن لنفقاتها الخاصة مدة سنة ورجال التشريفات كلهم بالملابس الاوربية السوداء

هذا واللبيب يرى في النبذة المتقدمة كثيرًا مما سبقتنا بهِ بلاد يابان على قرب عهدها بالعمران الحديث . ويقال ان احوال القطر المصري غير مجهولة عند اليابانيين وقد اتعظوا بنا فاستفادوا منا فائدة لا توازيها اموال الارض فانهم لما رأَوا مصر اضحت غنيمة للمداينين اوجبوا على حكومتهم سنة ١٨٧٣ ان لا تستدين غرشاً واحداً من الاجانب

ديانة اليابانيين

الانسان معمول لعوامل كثيرة وعمرانهُ نتيجة هذه العوامل . واقواها المذاهب الدينية فبها تتصوَّر اخلاق الشعوب وتتكيف افعالهم . ولا بدَّ من ان يكون للديانة التي يدين بها اهالي اليابان فعل كبير في نهضتهم الحديثة يهذّب اخلاقهم ويدمث طباعهم و يغريهم بالسعي والجد

ولا يمنعهم عن مخالطة غيرهم واقتباس الفوائد منهُ ولا يغرّرِبهم فيقنعهم انهم خير من غيرهم جبلة ومعتقداً. ومدار ديانة اليابانيين على اكرام اسلافهم اكراماً دينياً سمّهِ عبادةً ان شئتَ. فهذه الديانة تعلي قدر الفضيلة والهمّة والبسالة والكرم لان المرء ميَّال الى وصف اسلافهِ بهذه المحامد وامثالها ولو لم تكن بالغةً فيهم ثم هو ميَّال الى الاقتداء بمعبودهِ

وقد دخل الصينيون بلاد اليابان منذ عهد قديم وادخلوا معهم مذهب فيلسوفهم كنفوشيوس وهو موافق لديانة اليابانيين لانهُ مبني على اكرام الاسلاف فزادت بهِ تمكناً ثم جاء الدين البوذي من الهند وهو مخالف لها من هذا القبيل فاضطرّ دعاتهُ ان يغيروهُ حتى وافقها فاعتاد اليابانيون التسامح مع اهل الاديان المختلفة وجاء الآن العمران الاوربي ومعهُ دعاة المذاهب المسيحيَّة فافلح العمران اكثر من الدعاة لانهُ لا يناقض اكرام الاسلاف ولا يتعرَّض لهُ بل ان اكرام الاسلاف اكبر عضد لاكرام القانون والدستور والخضوع لهما لانهُ يستلزم اول كل شيء اكرام الملك واسلافهِ اكراماً دينياً كأن ديانة البلاد قائمة بعبادة الملك واسلافهِ او باكرامهم اكراماً يقرب من العبادة ولاسيما جدتهُ العليا التي يقولون انها الهة النور السموي

ومعنى الحكومة في لغتهم العبادات كأن مفهوم العبادة عندهم الاهتمام بمصالح العباد ولما سُنَّ دستور الحكومة حديثاً خطب الامبراطور يوم اذاعتهِ والعمل بهِ فقال "ان مؤسس دولتنا وغيرهُ من اسلافنا العظام شادوا هذه المملكة بمساعدة اسلاف رعايانا على اسس ابدية وقد ازدان تاريخ بلادنا بهذا العمل العظيم بفضائل اسلافنا وطاعة رعايانا وبسالتهم وحبهم لوطنهم . وما الدستور الذي نشرناهُ الآن سوى ايضاحات للوصايا التي اوصى بها مؤسس دولتنا وغيرهُ من اسلافنا العظام وقد اعتبرنا فيها ميل الناس الى الارتقاء ومجاراة العمران في تقدمهِ"

فامَّة تحسب نفسها مأمورة امرًا دينيًّا بطاعة ملوكها والعمل بقوانين بلادها ويحسب ملوكها انفسهم مأمورين امرًا دينيًّا باتباع ميل الناس الى الارتقاء ومجاراة العمران في تقدمهِ لا يصعب عليها وعليهم اقتباس العمران الاوربي ومجاراة الاوربيين في تقدمهم

التعليم

للتعليم الشأن الاكبر في احوال الامم بعد الدين ولا بدَّ منهُ لكل امَّة تريد ان تجاري الامم المتمدنة وقد ادرك اليابانيون هذا الامر وحالما فتحوا بلادهم للاوربيين ووجبت عليهم مجاراتهم او الخنوع لهم اوجبوا على انفسهم التعليم الاجباري اي ان يدخل كل ولد من اولادهم الكتّاب حالما يصير عمرهُ ست سنوات واقتبسوا اساليب التعليم الاوربي حالاً بدل الاساليب التي كانت متَّبعة في بلادهم والآن ٨٥ في المئة من اولاد اليابانيين يدرسون في المدارس .

وهذا التعليم الابتدائي لا يغني عن التعليم العالي كما لا يخفى . وقد رأى المركيز ايتو وزير اليابان الاكبر ان اليابانيين لا يستطيعون ان يجاروا الاوربيين ما لم يتعلموا مثلهم فبذل جهده في انشاء المدارس العالية والكلية وهاك جدول المدارس الابتدائية والمتوسطة والعالية والكلية عدا الكتاتيب الصغيرة وذلك عن سنة ١٩٠٠

المدارس	عددها	عدد المعلمين	عدد التلامذة
المدارس الابتدائية	٢٦٩٩٧	٨٨٦٦٠	٤٣٠٢٦٢٣
" المتوسطة	١٩٣	٣٢١١	٧٠٣٦٠
" العالية	٧	٣٥٠	٥٦٨٤
مدارس البنات العالية	٣٧٠	٤٤٩	٨٧٨٠
مدارس المعلمين	٤٩	٨٣٩	١٢٨٢٩
" " العليا	٢	١١٧	٨٠٣
المدارس الخاصّة والصناعية	٣٠٣	٣٢١٢	٤٤٦٩٨
مدارس مختلفة	١١٥٢	٣٩٨٥	٧٣٩٤١
مدارس جامعة	٢	٣٠٥	٣٢٦٨
مدارس الاطفال	٢٣٠	٦١٨	٢١٨٦١

والجامعتان احداها في عاصمة المملكة وفيها مدرسة للحقوق ومدرسة للطب ومدرسة لفنون الادب ومدرسة للعلوم الطبيعية ومدرسة للهندسة ومدرسة للزراعة. والثانية في كيوتو وهي مثل الاولى ولكن ليس فيها قسم لتعليم فنون الادب. واكثر الاساتذة في هاتين الجامعتين من الوطنيين ولم يكن الامر كذلك عند اول انشائهما بل كان اكثر اساتذتهما من الاجانب

قال المركيز ايتو للمستر ستد "لما كنت في لندن اهيئ الدستور الياباني اشار عليَّ البعض ان انشئ مدرسة للهندسة في اليابان فتكون منها فوائد جمَّة للبلاد فانشأت مدرسة الهندسة واتيتها بكثير من الاساتذة الاوربيين وقد خرج منها المهندسون اليابانيون الذين يديرون الآن اكثر الاعمال الهندسية العظيمة فاغنونا عن المهندسين الاجانب". وقد كانت هذه المدرسة مستقلَّة وحدها فاضيفت الى المدرسة الجامعة

ولغة اليابان وكتابتها تعوقان نشر التعليم فيها على حدّ لغتنا العربية وكتابتنا وهاك ما قاله الكونت اوكوما الياباني للمستر ستد في هذا الصدد

"ان من اكبر العقبات في سبيل طالب العلم من اليابانيين انهُ يضطر ان يتعلَّم القراءة

والكتابة الصينيَّة وان يتعلَّم لغة اجنبيَّة على الاقل وعندنا عقبة اخرى خاصَّة بنا وهي الفرق بين اللغة المكتوبة واللغة المحكية فقد كانتا قبلاً متماثلتين ثم انتشر في بلادنا التعليم الصيني فكُتبت لغتنا بالحروف الصينيَّة وهي لا توافقها فاذا خطب الاستاذ لا يستطيع التلامذة ان يكتبوا بالحروف الصينية الفاظهُ كما هي بل يضطرون ان يكتبوا ما يدلُّ على معناها . ثم ان اليابانيين غير اقوياء البنية طبعاً لطول ما مرَّ بهم من سني السلم والرخاء وهم مضطرون ان يتغلَّبوا على ما تقدَّم من الاختلاف بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة فلا يبقى لهم وقت كافٍ لتمرين اجسامهم وتقويتها واذا اردنا تمرين اجسامهم وجب علينا ان نطيل سني التعليم . وقد ادركنا هذه الصعوبة منذ نحو عشرين سنة وقام منا فريقان لازالتها فريق يطلب ابطال الكتابة الصينية وابدالها بالكتابة اليابانية وفريق يطلب ابطال الكتابة الصينية وابدالها بالحروف اللاتينية . واشتدَّ الجدال بين هذين الفريقين. وقام الآن فريق ثالث يطلب اصلاح اللغة والكتابة معاً. وقد اهتمت الحكومة بهذه المسألة وعينت لجنة للبحث فيها . ومن المصاعب الكبرى في التعليم ان بعض الاساتذة يعلّمون بالانكليزية والبعض بالفرنسوية والبعض بالالمانية وهذا ممَّا لا بدَّ منهُ في التعليم العالي في دور الانتقال من حال الى حال ولكن صار يمكننا الاستغناء عنهُ الآن ولذلك انشأتُ مدرسة كلية اساتذتها كلهم من اليابانيين والتعليم فيها باللغة اليابانية وحدها وقد وجدنا صعوبة كبيرة في اول الامر لقلَّة كتب التعليم اليابانية فانشأتُ دار طباعة حيث تترجم الكتب المهمة وتطبع . وعاد هذا العمل بالخسارة المالية في اول الامر ثم كثر الطلب على هذه الكتب وقويت همَّة المترجمين على الترجمة وارجو ان تقتدي بنا الحكومة وكل دور الطباعة ولا يزال اهالي يابان متمسكين بكثير من اساليبهم القديمة ولكن كل سعي في ازالتها واقتباس الاساليب الجديدة يعود علينا بالنفع"

قال المسترستد ولا يقتصر سعي الكونت اوكوما على تعليم الصبيان ولا على التعليم الادبي بل قد انشأ مدرسة عالية للبنات في العام الماضي ومدرسة للتجارة . وقال لي عن هذه المدرسة ما يأتي . "لا تزال هذه المدرسة قليلة التلامذة فليس فيها الآن سوى مئة تلميذ ولكنها تسع ثلثمئة وارجو ان تمتلئ سريعاً. ويدخلها التلامذة من المدارس العالية من غير امتحان يدرسون فيها ثلاث سنوات فيتأهَّلون لمعاطاة اي عمل تجاري وقد اشرت على الحكومة ان تنشئ فرعاً لعلم التجارة في كل مدرسة عالية . والاساتذة كلهم يابانيون ما عدا معلمي الانكليزية فانهم انكليز ومعلمي الصينية فانهم صينيون . وتعلُّم اللغة الانكليزية اضطراري واما تعلُّم اللغة الصينية فاختياري . وظاهر انهُ اختار هاتين اللغتين لان اكثر تجارة اليابان مع اهلهما"

والكونت اوكرما من وزراء يابان المشهورين وهو الذي حاول احد المتعصبين قتلهُ سنة ١٨٨٩ فقتل فرسي مركبتهِ وسائقهما واطار ساق الكونت بالديناميت وستأتي ترجمتهُ في تراجم مشاهير اليابان والمركيز ايتو المذكور قبلهُ اشهر رجل في يابان نسبتهُ اليها نسبة بسمارك الى المانيا بل اعظم من ذلك كما سيجيء في ترجمتهِ

وترسل اليابان بعض التلامذة الى اوربا واميركا وقد ارسلت وزارة المالية هذا العام ثلاثة الى انكلترا اثنين لدرس الامور المالية وواحدًا لدرس بناء الارصفة والحياض في المرافىء البحرية وارسلت وزارة التعليم ووزارة التجارة والزراعة تلامذة آخرين

وجملة التلامذة الذين تعلمهم الحكومة الآن في مدارس اوربا واميركا ١٠٦ وهم ٣١ من جامعة توكيو و٢٢ من جامعة كيوتو و٩ من مدرسة التجارة العليا و١١ من مدرسة المعلمين العليا و٨ من مدرسة توكيو الصناعية و٢ من مدرسة اوساكا الصناعية و٤ من مدرسة الفنون الجميلة و٢ من مدرسة الموسيقى و٢ من مدرسة اللغات الاجنبية و٣ من مدرسة الزراعة و٢ من مدرسة البنات العليا الخ . وقد شاهدنا بعض هؤلاء التلامذة ورأينا فيهم من الانفة وعزَّة النفس مع الرغبة الشديدة في احراز العلم ما اثبت لنا ان همهم كلهُ مصروف الى الاكتساب والارتقاء وحسبهم انهم صاروا يجارون علماء اوربا في الاكتشافات العلمية بل في ادقها كميكروبات الامراض وفواعل الاختمار وما اشبه

وجملة ما تنفقهُ الحكومة على مساعدة التعليم الصناعي وعلى تهذيب الامَّة نحو ٣٢ الف جنيه واما سائر نفقات التعليم فمن رسوم خصوصية تتقاضاها من الاهالي

وليس في مدارس يابان شيءٌ من التعليم الديني ولكن عند اليابانيين وصايا ادبية مجموعة تسمى بوشيدو وكأنها زبدة الآداب في كل الاديان . ومهما اختلف الناس في مذاهبهم لا يختلفون في آداب البوشيدو وهي توافق آداب الديانة المسيحية كل الموافقة ولم يكن اضطهاد اليابانيين للمسيحيين في اواخر ايام الشوغن ناتجًا عن مخالفة الديانة المسيحية لآدابهم بل عن ان الذين تنصَّروا من اليابانيين طلبوا امتيازات لا يتمتع اليابانيون بها. اما الآن فيعترض اليابانيون على الرسوم التي في الاديان المختلفة ويقولون انهُ اذا تجرَّدت هذه الاديان منها وبقي فيها الحقائق الادبية المجرَّدة لم تعد تفرق عما يجدونهُ في البوشيدو

وسيأتي الكلام على سائر مقومات العمران الياباني الحديث في الاجزاء التالية عظةً للمتَّعظ

علم الفكر

يخلق طفل الانسان ضعيفاً ناقصاً في مداركهِ العقلية سلبيًا في معظم صفاتهِ ويخلق طفل الحيوان كاملاً في جميع القوى التي تؤهلهُ للحياة ايجابيًا في معظم صفاتهِ . فطفل الانسان لا يعرف كيف يأكل ولا كيف يشرب ولا كيف ينام ولا كيف يمشي ولا كيف يفتكر فهو مجموع صفات سلبية على الغالب يشابه طفل سائر الحيوانات في الحياة والحس ظاهرًا ويختلف عنهُ من سائر الوجوه . وطفل الحيوان يعرف كيف يأكل ويشرب وينام ويمشي ويدير حركاتهِ وسكناتهِ بقدر ما تسمح لهُ غريزتهُ . وهو ارقى من طفل الانسان في الدرجة الاولى من الحياة فان طفل الانسان ضعيف جدًّا لا قوة لهُ ولا معرفة يحفظ بها نفسهُ ولا سلاح يدافع بهِ عنها. واما صغير الحيوان فكامل الخلق مثل كبيرهِ ولا يزيد الكبير عنهُ الاَّ في حجم جسمهِ وما يترتب على ذلك من زيادة القوة لا الخبرة وكلاهما مترتب على قوة النمو الحيوي . وطول الايام لا يزيد الحيوان الاعجم خبرة ولا دربة مثل الانسان

وقد يظن لاول وهلة انهُ ان احتاج صغير الانسان الى من يعلمهُ الاكل والشرب والنوم والمشي والكلام فهو لا يحتاج الى من يعلمهُ الفكر . بل ان هذا هو الاعتقاد العام فانا افتكر وانت تفتكر وكلانا شرعنا في الفكر منذ شرعنا في الكلام ووالدونا يخبروننا انهم علَّمونا الاكل والشرب والمشي والكلام حين لم نكن نعرفها ولكننا لم نسمع ابًا ولا امًّا قالا انهما علَّما اولادهما كيف يفتكرون. والحقيقة التي لاريب فيها ان الفكر علم باصول وقواعد مثل سائر العلوم والفنون فمن تعلَّم كيف يفتكر ويستدلُّ كان فكرهُ صحيحًا ومن لم يتعلَّم كان فكرهُ فاسدًا او مستقيمًا

ومن الغريب ان علم الفكر لا يزال في طور الطفولة وهو من الحاجيات التي لا بدَّ منها ليكون الانسان انسانًا مع ان سائر الاعمال الحاجية كالاكل والشرب والمشي والكلام منها ما يشرع الطفل في تعلمهِ واجادتهِ منذ ولادتهِ وتختلف مدة اتقانهِ لها باختلاف شدة الحاجة اليها. فالاكل والشرب ضروريَّان جدًّا يباشرهما الطفل لدن ولادتهِ ويجيدهما بالممارسة فلا تمضي عليهِ مدة طويلة حتى يتقنهما تمام الاتقان او بعضهُ . واما المشي والكلام فيكونان في الغالب متلازمين ولا يتعلمهما الطفل حتى يجتاز الحولين الاولين من سنهِ ولا يتقنهما وخصوصًا الثاني منهما الاَّ بعد مضي السنين الطوال وقد يشب ويشيب ولا يتقن الكلام كما يجب

على ان علم الفكر والاستدلال لا يتقنهُ الاَّ العالم ولا يتضلَّع منهُ الاَّ الفيلسوف وقد

لا يتقنانهِ بل يغلطان فيهِ ويخطئان على الدوام واما سائر الناس فقلما يعرفون كيف يفتكرون ولو عرفوا لصدق حكم الانسان في جميع اعمالهِ صدق الغريزة في اعمال سائر الحيوان. وعلم الفكر هذا هو ما يسمونهُ بالمنطق . نعم ان الانسان منطقيٌّ بالطبع وقواعد المنطق مطبوعة على صفحات عقلهِ مخلوقة معهُ ولكنهُ لا يتقنها كلها من غير تعليم وتمرين

وليس من غرضي الكلام على علم المنطق بل ايراد بعض الامثلة والشواهد على ما نفتكر بهِ ونقولهُ ونفعلهُ ونسمعهُ كلَّ يوم وبيان مواطن الخطإِ في كلٍّ منها

مثال اول — يسمع زيد ان عمرًا تاجر فربح وانهُ عند ما بدأ المتاجرة لم يكن عندهُ سوى مئة جنيه مثلاً . فيقول في نفسهِ اني اتَّجر فاربح مثلهُ لان عندي مئة جنيه او اكثر. فيشرع في الاتجار ولكن لا تمضي عليهِ مدة طويلة حتى يتأخر في تجارتهِ ثم يفلس. فيعتذر عن اخفاق مسعاهُ وافلاسهِ بمعاندة الاقدار لهُ . وهذه حجة يلجأُ اليها كلُّ ضعيف الحيلة قليل العزم والحزم في قصورهِ وتقصيرهِ . وسأُبيّن سبب خطاءِه وخطإِ غيرهِ فيما يلي من الامثلة بعد ايرادها كلها

مثال ثانٍ — يجول في خاطر زيد انشاءُ جريدة يومية فيقول في بالهِ لما انشأ فلان جريدتهُ لم يكن معهُ سوى النزر القليل من المال وعندي اكثر منهُ الآن وهو لم ينل شهادة من مدرسة بل لم يتعلم في مدرسة ذات شأن واما انا فناقل شهادة من كلية كبيرة . وقد جمع في سنوات قليلات ما يعدُّ بالمئات والالوف من الجنيهات وعليهِ سأَجمع انا في سنوات مثلها واكثر مما جمع لاني اجمع منهُ للشروط اللازمة للصحافي . فيشرع في انشاء جريدتهِ ولكن لا يلبث ان يصدر العدد الاول والثاني منها حتى يظهر الضعف فيها على اشدّ حالاتهِ ولا يصدر العدد الثالث الاَّ وهي في سكرات الموت ونزعاتهِ . فيلجأُ الى عذر اخيهِ التاجر وينسب خيبة الامل والمسعى الى نجم سعدهِ الآفل . والحقيقة ان هذا الكاتب عرف شيئًا وغابت عنهُ اشياءُ ولو تدبرها ما اقدم على مشروعهِ اقدام الموقن بالظفر والنجاح

مثال ثالث — كنت احدّث ذات يوم طبيبًا من اصدقائي زار البلاد الغربية وكان مدار الحديث على المرأة فقال اني اعجب كيف يقولون ان مدارك الرجل العقلية اسمى من مدارك المرأة فان هذا القول يظهر صحيحًا في الشرق ولكنك لو ذهبت الى اوربا او اميركا لكنت ترى كثيرات من النساء يفقن الرجال في سموّ مداركهنَّ وقوة عقولهنَّ . قلت اني لا انكر عليك قولك بل قد تجد مثل ذلك في الشرق ايضًا ولكن قولهم ان مدارك الرجل العقلية اسمى من مدارك المرأة لا يلزم عنهُ كون كلِّ رجل اسمى مدارك من كلِّ امرأة

مثال رابع — يضرب الصديق لصديقهِ موعدًا للقاء في مكان معلوم ويقول لهُ "ساوافيك

الى هناك الساعة السادسة تماماً " فتأتي الساعة السادسة والسابعة ولا يأتي . هذا ما يجري في الشرق عموماً حتى اخذ الغربيون يضربون فينا الامثال باخلاف الوعود ونكث العهود . واما الغربي كالانكليزي مثلاً اذا اراد ان يضرب لك موعداً للقاء فيقول لك "ساجتهد حتى اوافيك الى هناك الساعة السادسة" فيوافيك قبل مجيء الساعة . والسبب في اخلاف الصديق الاول لوعدهِ ووفاء الثاني بهِ ليس ناشئاً عن طبع الاول على الكذب والثاني على الصدق بل عن قصور في كيفية الفكر . فاستعمال اجدادنا وآبائنا عموماً لعبارة "ان شاء الله" عند ضرب المواعيد او الشروع في امر ما هو من الحكمة وحسن الفكر بمكان ولو كنا ننكرها عليهم ونعدها مناقضة لمجاملات تمدننا الحديث

مثال خامس — قال احدهم في ليلة ساهرة ان ابن فلان ضعيف البنية لا يرجى كثيراً وما ذلك الاَّ لان اباهُ تزوج وهو كبير السن ابنة صغيرتهُ وبنى على ذلك القاعدة العمومية الآتية وهي ان كل رجل يتزوج كبير السن بابنة صغيرة السن كأَن يكون عمرهُ ٤٠ وعمرها ١٥ يكون اولادهما نحاف الجسم ضعاف البنية. فاعترض احد الحاضرين قائلاً ان فلاناً تزوج كبير السن ابنة صغيرة السنّ واولادهما ما شاء الله . فضعف بنية الاولاد لا يلزم عن تزوّج الاب كبير السن

مثال سادس — فصَّل زيد ثوباً يوم الثلاثاء فلم يلبسهُ يوماً او يومين حتى قضى نحبهُ وفصل عمروٌ ثوباً يوم الاربعاء فلبسهُ حتى ابلاهُ وربما لبسهُ ضعيفاً ضئيلاً فأبلاهُ قوياً سميناً فشرع الناس يفصلون الاثواب ايام الاربعاء لانها ايام سعود ويتحامون تفصيلها ايام الثلاثاء لانها ايام نحوس

وسافر بكر يوم الخميس فلم يعد الى قومهِ بل مات غريباً عن اهلهِ بعيد الدار . وسافر عبيد يوم السبت فعاد الى اهلهِ سليماً معافًى وربما سافر فقيراً فعاد غنياً . فجعل الناس يسافرون ايام السبت وينقطعون عن السفر ايام الخميس لان السفر فيهِ شؤْم ونزغ من ابليس

وفي النفس كثير من هذه الامثال والشواهد يكفي ما سردتهُ منها لبيان الغرض فاعود الآن الى بسطها واظهار مواطن الضعف والخطإ في الاقيسة التي تضمنتها

الاول . سبب تأَخر زيد في التجارة وافلاسهِ خطأُهُ في الفكر والاستدلال فانهُ ظنَّ ان وجود رأس المال في يد التاجر هو اسُّ نجاحهِ وحدهُ فلما ملك رأس المال بنى النجاح على ظنهِ الفاسد فاخطأَ المرمى . فكأَنهُ قال ان رأس المال هو كلُّ ما يلزم لنجاح التاجر ومعي رأس مال فلا بدَّ اذاً ان انجح ولكن المقدمة الاولى (وهي ما يسميها المنطقيون المقدمة الكبرى) فاسدة

فالنتيجة فاسدة ايضاً. اذ رأس المال احد الامور اللازمة للتاجر لا الامر الوحيد وقد لا يكون من الامور الجوهرية لهُ. فمّا يلزم التاجر في انجاح تجارتهِ غير رأس المال الميل الفطري الى التجارة والامانة والثبات والخبرة والاقتصاد في النفقة وملاءمة الاحوال الخارجية. فهات لي رجلاً ميّالاً من فطرتهِ الى التجارة اميناً ثابتاً خبيرًا بفنونها واساليبها مقتصدًا في نفقتهِ والسوق التي يقيم فيها تجارتها رائجة وانا الكفيل لك بنجاحهِ

الثاني. لم ينجح زيد في انشاء جريدتهِ لانهُ اعتمد على مالهِ وذكائهِ وليس المال والذكاء كلّ ما يلزم لانشاء الجرائد بل لا بدَّ للكاتب ان يتصف ببعض ما اتصف بهِ التاجر كالخبرة وملاءمة الاحوال فان معظم السبب في نجاح بعض الجرائد المصرية مثلاً انشاؤُها في زمان كانت البلاد فيهِ مستعدة لها محتاجة اليها وهذا ما سميتهُ بملاءمة الاحوال. فلما صار فيها ما يكفيها منها امست كلُّ جريدة تصدر بعد ذلك ولا مزية لها زيادة عن اللازم وفضلة يستغنى عنها. فاذا عرف ذلك ظهر بعض السبب في موت كثير من الجرائد الحديثة بعد ظهورها برهة قصيرة. وهناك مزية اخرى يجب ان يتصف بها منشئ الجريدة وهي ان يكون صحافياً بالطبع اي انهُ يجب ان تكون لهُ صفة خصوصية للتمييز بين ما يلائم اذواق قرائهِ وما لا يلائمها فينتقي الحسن وينبذ القبيح. فاذا تدبَّر العاقل هذه الامور لا يقدم على العمل الاَّ اذا ايقن انها متوفرة فيهِ كلها

الثالث. خطّأَ صاحبي الطبيب الحقيقة الثابتة وهي ان مدارك الرجل العقلية اسمى من مدارك المرأة اعتمادًا على ما رأى من سمو مدارك كثيرات من النساء الغربيّات ولكن ذلك لا يستلزم كون كلّ رجل اسمى مدارك من كل امرأة بل المراد بهِ الجنس عُموماً وهي حقيقة اثبتها العلماء بعد طول البحث فاذا شذَّ بعض النساء عنها فذلك لا يقدح في صحتها اذ لكل قاعدة شذوذ

الرابع. سبب اخلاف الصديق المذكور في المثال الرابع لوعدهِ شدة توكيدهِ حيث لا يمكن التوكيد فكانهُ قال لا بدَّ ان انجز شغلي قبل الساعة السادسة ولا يمكن ان يحدث ما يعوقني عنهُ فلا بدَّ اذًا ان اوافي صديقي في الاجل المضروب. ونسي انهُ قد يحدث لهُ ما ليس في حسبانهِ ممَّا هو في عالم الغيب فيؤَخرهُ عن اتمام الوعد مكرهاً لا مختارًا. فعبارة ان شاء الله التي يستعملها بعضنا في امثال هذا الموقف غاية في الاصابة اذ يصير الوعد مشروطاً فيهِ

الخامس. بنى المذكور في المثال الخامس قاعدة عمومية على مثال خصوصي فكانهُ قال فلان تزوج كبير السن بابنة صغيرة السن فجاء اولادها نحافاً وعليهِ فكلُّ من يتزوّج كبير

السن بابنة صغيرة السن يأتي اولادهُ ضعاف البنية . ولو وضع الاغلبية مكان التعميم لجاء حكمهُ صادقاً اذ الطب يثبت ان غالب الذين يتزوجون كبار السن ببنات صغيرات السن يكون نسلهم ضعيف الاجسام . فاعتراض المعترض في محلهِ

السادس . رأى اهل زيد واصدقاؤُهُ انهُ فصّل ثوباً يوم الثلاثاء فلم يلبسهُ مرةً او مرتين حتى قضى نحبهُ فقالوا كلٌّ من يحذو حذوهُ يصيبهُ ما اصابهُ وجعلوا تفصيل الثوب يوم الثلاثاء علة او سبباً للموت وهكذا فعل اهل عمرو وبكرو وعبيد وهو ما نفعلهُ نحن كلٌّ يوم نخلط علل الحوادث واسبابها بمصاحباتها فنجعل المصاحبات عللاً على حين انها ليست من العلل في شيءٍ . نعم ان العلل قد تلتبس بالمصاحبات احياناً في الحوادث الطبيعية وغيرها ولكن الفكر الصحيح والبحث الدقيق يفرّق بينها. مثال ذلك ان البرق ليس علة للرعد بل مصاحب لهُ لانهما يحدثان معاً ولكننا نرى البرق قبل ان نسمع الرعد لسرعة سير النور وبطء سير الصوت فنظن الرعد ناتجاً عن البرق. يصاب زيد بالسكتة الدماغية ويسقط من مكان عالٍ في آن واحد فنقول ان زيداً سقط من مكان عالٍ فمات وكان السقوط علة موتهِ . ولكن الكشف الطبي يثبت ان سقوطهُ لم يضرّ بهِ البتة وانهُ ليس علة لموتهِ بل مصاحب لهُ والعلة الحقيقية السكتة وانما نسبنا الموت الى السقوط لجهلنا السبب

وهكذا يجري في كثير من الحوادث اليومية وهنا منشأُ الخرافات والاوهام التي لم تسلم منها امة تحت السماء فزالت بتقدم المعرفة وزوال الجهل او كادت

يرى مما تقدم ان الفكر الصحيح علم بقواعد واصول مثل سائر العلوم والفنون وانهُ لا يكون حكمنا في الامور صحيحاً ما لم يكن فكرنا صحيحاً فلا بدَّ لنا من تعلُّم علم الفكر وتعليمهِ لاعقابنا اذا اردنا ان نحيا الحياة على هدى لا على ضلال . وذلك يتأتى بتعليم اطفالنا كيف يفتكرون ويستنتجون ويستدلون وهم في البيت قبل زمن المدرسة. ثم اذا دخلوا المدرسة نسجوا فيها بادئ ذي بدء على منوال ما تعلموهُ في البيت . ومن ذلك النظام الذي ادخل حديثاً الى المدارس الابتدائية في اوربا واميركا وجرت عليهِ كلية بيروت الاميركية في قسمها الاستعدادي وبعض المدارس المصرية هنا وهو ما يسمونهُ درس الاشياء واسبابها . فتعمل امام التلاميذ العمليات والتجارب من طبيعية وكيماوية عن اسباب الاشياء ونتائجها وعللها ومعلولاتها اومصاحباتها فلا يسمعون بالاذن فقط كما في سائر الدروس بل يرون بالعين ويلمسون باليد فتنطبع المرئيات والتجارب على صفحات عقولهم حتى اذا شبوا وكبروا وشرعوا في العمل كانت اساساً للفكر الصحيح يبنون عليهِ العمل الصحيح

نجيب شاهين

خرائب الشام

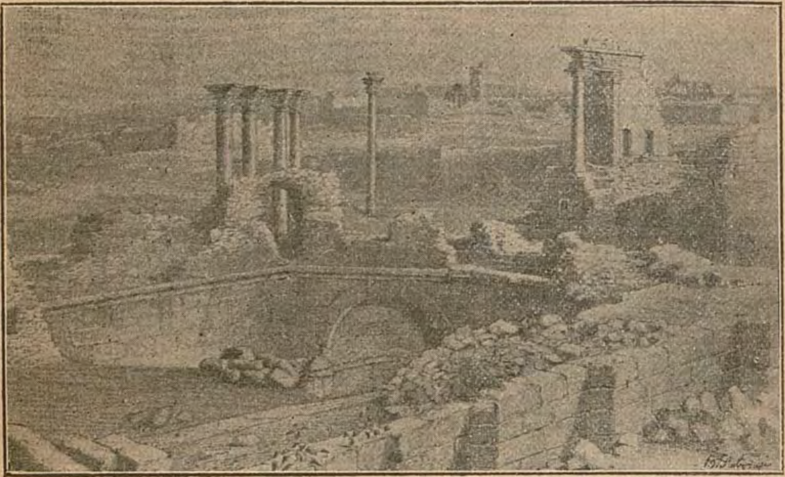

مدينة بُصرى

فتحنا تقويم البلدان لنرى ما يقولهُ ابو الفداء عن هذه المدينة التي كانت عاصمةً من العواصم الكبيرة ومسقط رأس القائد العربي الذي لبس الارجوان وصار امبراطورًا على مملكة الرومان قبل الاسلام بنحو اربع مئة عام فرأيناهُ يكتفي بقولهِ "في العزيزي بصرى مدينة كورة حوران وهي مدينة ازليَّة مبنيَّة بالحجارة السود مسقَّفة بها وفيها سوق ومنبر وهي من ديار بني فزارة وبني مرة وغيرهم ولها قلعة ذات بناء متين و بساتين وبناء قلعتها شبيه ببناء قلعة دمشق . قال ابن سعيد بصرى قاعدة حوران وهي على اربع مراحل من دمشق" انتهى ما نقلهُ ابو الفداء في كتابهِ تقويم البلدان . وذكر الزبيدي بصرى في تاج العروس فقال انها بلد بالشام بين دمشق والمدينة اول بلاد الشام فتوحًا قال الشاعر

ولو اعطيت مَن ببلاد بصرى وقنسرين من عَرَبٍ وعُجْمِ

وينسب اليها السيوف البصرية وانشد الجوهري للحصين بن الحمام المري

صفائح بصرى اخلصتها قيونها ومطردًا من نسج داود احكما

ثم فتحنا الطبري لنرى ما يقولهُ في فتوح الشام ولو حشَّاهُ النسَّاخ بما ليس منهُ فوجدناهُ يقول ان بصرى كانت مدينة حصينة جدًّا في زمن الفتح آهلة بالخلق عامرةً بالناس وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من اقصى اليمن وبلاد الحجاز فاذا كان في ايام الموسم ينصب لبطريقها

كرسي يجلس عليهِ ويجتمع الناس اليهِ يستفيدون من علمهِ وحكمتهِ وكان صديقاً لابي بكر الصديق . وجَّهَ اليها ابو عبيدة بن الجرَّاح شرجيلَ بن حسنة في اربعة آلاف فارس فنشبت الحرب بينهُ وبين اهلها وخرجوا اليهِ باثني عشر الف فارس من الروم وكادت الدائرة تدور عليهِ لولا ان قدم لنجدتهِ خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن ابي بكر بجيوش المسلمين ولامهُ خالد قائلاً أَما علمتَ ان هذه ميناء الشام والعراق وفيها عساكر الروم وبطارقتهم فكيف غرَّرت بنفسك وبمن معك من المسلمين. ثم ان بطريق المدينة واسمهُ روماس خان قومهُ وامر غلمانهُ بثغر السور ففتحوا فيهِ باباً خرج منهُ واتى خالداً وادخل المسلمين الثغرة وفتح لهم ابواب المدينة فاستولوا عليها

اما الامبراطور العربي المشار اليهِ آنفاً فاسمهُ فيلبس ذكرهُ ابن خلدون باسم فلفش وقال انهُ ابن اولياق بن انطونيش وَلِيَ سبع سنين وهو اول من تنصَّر من ملوك الروم . ولم يذكرهُ المسعودي او ذكرهُ باسم يعربيس اي ان واحداً من هذين المؤرخين ذكر اسم فيلبس والآخر ذكر لقبهُ واكتفيا بذلك . والمعروف من امر هذا الامبراطور الآن ان اسمهُ يوليوس فيلبس ويلقب بفيلبس العربي وهو من اهالي بصرى انتظم في سلك الجيش الروماني وارتقى فيهِ حتى صار قائد جيوش غرديانس في المواقع التي جرت بين الروم والفرس ثم اغرى الجنود بقتل امبراطورهم فقتلوهُ ونادوا بهِ امبراطوراً بدلاً منهُ وكان ذلك سنة ٢٤٤ للميلاد . فاهتمَّ بامر بصرى مسقط رأسهِ وجعلها عاصمة واعطاها حقوق العواصم الرومانية . ثم ثارت الجنود عليهِ فقتل قرب فرونا سنة ٢٤٩ . وذكر يوسيبيوس انهُ كان مسيحيًّا واثبت ايرونيموس ذلك وكان لهُ ابن اسمهُ فيلبس ايضاً قُتل معهُ ويلقَّب فيلبُّس الثاني لان اباهُ اشركهُ معهُ في الملك

واما مدينة بصرى فقديمة جدًّا اقدم من الاسكندرية لان الاسكندر المكدوني وجدها عامرة حصينة لما فتح الشام وبقيت في يد خلفائهِ من ملوك الشام الى ايام انطيوخُس ديونيسيوس فاستولى عليها ملك من ملوك العرب ثم اخذها الامبراطور طراجنس سنة ١٠٥ وبنى فيها المباني الفخيمة واباح لاهلها ان يسموها باسمهِ وجعلها كولونية رومانية وبقيت سنين كثيرة بعدهُ من آهل المدائن الشرقية ومباءة تجَّار العرب وجُعل لها تاريخ خاص مثل تاريخ الاسكندر والتاريخ المسيحي والهجري يبتدئ من تلك السنة اي سنة ١٠٥ وهو التاريخ البصري المشهور الذي ارَّخ بهِ الفرس زماناً طويلاً

اما مجدها السالف وما صارت اليهِ بعد الفتح فتدلُّ عليهما الصورة التي في صدر هذه المقالة حيث ترى العُمُد العظيمة ماثلة كأنها تستشهد الزمان على ما كان لها من المجد والعزة والخرائب منبثة حولها تندب ما حلَّ بها من الدهر وابنائهِ . وابلغ من ذلك واوضح وصف

الدكتور بورتر الانكليزي الذي زارها منذ نحو اربعين سنة وكتب عنها ما ترجمتهُ ملخصاً

" اقمت في بصرى ثلاثة ايام. خرائبها كثيرة لا ترى في يوم او يومين محيطها خمسة اميال لها سورٌ عالي الجدران وثيق البنيان وقلعة لا احصن منها في كل بلاد الشام. تبيَّنتُ في هذه المدينة خرائب مشهدين وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكبيرة وهي تدلُّ على ان اهالي بصرى كانوا على جانب عظيم من الغنى وحسن الذوق لان بعض هذه المباني يصلح لأن تزدان بهِ اعظم عواصم اوربا الآن

ولم يكن البحث عن هذه الآثار بالامر السهل لكثرة الانقاض وتراكمها بعضها فوق بعض. صعدت على جدار لانسخ كتابة يونانية فوقع الجدار بي ولو لم اثب عنهُ بسرعة لدُفنت تحت حجارتهِ

كان في بصرى في زمن عزها مئة الف نفس ولما زرتها لم اجد فيها سوى عشرين عائلة تسكن بعض الخرائب القديمة قرب القلعة وما بقي من المدينة خراب لا ساكن فيهِ. وحول المدينة ينابيع ومصانع كثيرة يأتيها العرب احياناً يسومون فيها انعامهم وينهبون القوافل التي تمرُّ بهم ولم ننجُ منهم الاَّ باستئجارنا اخا شيخهم دليلاً لنا

كانت بصرى احصن مدن باشان ومعقل الرومان شرقي الاردن قست الباقي من سورها فوجدت ارتفاعهُ ٣٠ قدماً وثخنهُ ١٥ قدماً وفيهِ ابراج مربعة على ابعاد متساوية. وكان طول المدينة داخل السور ميلاً وربع ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ضواحي كثيرة المباني ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمرُّ في وسطها لهُ بابان جميلان على طرفيهِ وشوارع رحبة تقطعهُ على زوايا قائمة. ما اكبر الفرق بينها وبين الشوارع التي ابقاها العرب بعد الفتح بين بيوتهم. تلك رحبة مستقيمة تحفُّ بها المباني الفخيمة وهذه ضيقة متعوجة تحيط بها الاكواخ الحقيرة منتزعة من المباني القديمة. تجد قصراً رومانياً بديعاً او هيكلاً يونانياً فخيماً وبلصقهِ دكاكين العرب الحقيرة وقد مدَّ الخراب مطارهُ على الفريقين

ولقد يتعب القارئ اذا اردت ان اصف لهُ كلما رأيتهُ هناك كما تعبت انا من البحث عنهُ لاني رأيت ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح. وركام الانقاض تدل على ما مرَّ بهذه المدينة من العبَر وما تقلَّب عليها من الازمان كما تدل طبقات الارض على العصور الجيولوجية. هناك ترى بيوت الاقدمين التي كانت ابوابها وسقوفها من الحجر وكان يسكنها الرفائيون قبل مجيء ابرهيم الخليل الى بلاد الشام وفوقها هياكل اليونان والرومان وكنائس المسيحيين. رأيت كتابة على حجر يقال فيها

ان الهيكل جعل كنيسة على اسم القديس يوحنا ودخلت هذا الهيكل او هذه الكنيسة فرأيت انهُ جُعل جامعاً وكتبت عليهِ كلمة الشهادة

من اول المباني التي دخلتها القلعة مررت في طريقي اليها بقوس النصر التي اقيمت للقائد فيلبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى . والقلعة في جنوبي المدينة خارج اسوارها كبيرة جدًّا ولا تزال جدرانها وابراجها والخندق الذي حولها سليمة واما داخلها فخراب يباب في اسفلها صهاريج كبيرة ومخازن وفوقها غرف كثيرة وفي وسطها مشهد قديم قائم على عمد وقناطر يرى الجالس فيهِ المدينة وما حولها من الارباض . والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧٠ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية والظاهر انهُ بني لتسلية الجنود الرومانية حينما كانت بصرى مقرهم. وفي القلعة برج شاهق صعدت الى قنتهِ ورأيت منهُ الطرق التي كانت متفرعة من بصرى وممتدة الى كل المدن المجاورة في خطوط مستقيمة واحدة تصل الى اذرع وواحدة الى السويداء ودمشق وواحدة تجري في الشمال الغربي بين جبال باشان وواحدة الى القُرَيَّة وواحدة الى قلعة صلقة . والدلائل كلها تدلُّ على ان البلاد حول بصرى الى ما يمتد اليهِ النظر بالتلسكوب كانت عامرة آهلة بالسكان كثيرة المدن والمصانع في اطيب بقاع الارض ماءً وهواءً وهي الآن قفر بلقع

ثم اخذنا الدليل الى كنيسة كبيرة وهي كنيسة بصرى المشهورة في التاريخ فرأيتها مبنية في شكل صليب يوناني وفوق بابها كتابة يقال فيها ان يوليانوس رئيس اساقفة بصرى بناها سنة ٥١٣ تذكاراً للشهداء سرجيوس وباخُس وليونتيوس. وقال الدليل انها كنيسة الراهب بحيراء النسطوري المشهور في كتب العرب. وعلى مقربة من الكنيسة جامع كبير يقال ان الخليفة عمر بن الخطاب بناه سقفهُ قائم على اعمدة كبيرة بينها سبعة عشر عموداً من الرخام الابيض وعلى اثنين منها كتابة تدلُّ على ان اصلهما من كنيسة ولعلهما كانا قبل الكنيسة في جامع يوناني

وسرنا الى الباب الغربي في طرف الشارع الكبير فوجدناه قنطرة رومانية واسعة مزخرفة القائمتين وامامها بيت الديدبان بناؤُهُ مثل بنائها وقفت هناك انظر من هذا الباب وارى ركام الانقاض والجدران المتصدعة ووراءها قوس النصر كانها اقيمت تذكاراً للدمار لا للنصر وحول المدينة قفر بلقع لم ارَ ما يماثلهُ قحلاً الاَّ حول تدمر" انتهى كلام الدكتور بورتر

وكان شرقي بصرى حوض للماء طولهُ ٣٩٠ قدماً في مثلها عرضاً وعمقهُ ١٥ قدماً والى جنوبيها حوض آخر طولهُ ٥٣٠ قدماً وعرضهُ ٤٢٠ قدماً وعمقهُ ٢٠ قدماً والى غربيها حوض اكبر منهما طولهُ ٥٦٠ قدماً وهذه الحياض مملوءَة الآن بالردم والانقاض

هذا ما بقي من عاصمة كورة الرومان في بلاد العرب وللزلزلة التي حدثت في اواسط القرن الثاني عشر اليد الطولى في تخريب مبانيها اما ضعفها فابتدأ من حين خربت البلاد التي حولها

ماهية الفلسفة

كان علماء اوربا في الثلث الاخير من القرن الماضي يكرمون الفلسفة كأنها ربَّة العلوم كلها وكانت دور العلم في المانيا قاعدة العلوم العليا غاصَّة بالطلبة يسمعون اقوال فلاسفتها ويقبلونها كأنها وحيٌ مُنزَل . وكثر البحث الفلسفي في كل مكان واصحابهُ يحاولون حل المسائل الكبرى مسائل الحياة . واشتاق الناس الى كشف الغوامض واشتدَّ بهم هذا الشوق حتى لم يصبروا على البحث في امور الكون بالتأني فاكتفوا بالاوضاع الفلسفيَّة الباحثة عمَّا وراء الطبيعة

ويتضح ما كان للفلسفة من السطوة على عقول الناس في ذلك العصر من قول فردرك وشر الذي قال ان كل قوى الشبان كانت تصرف الى حل المسائل العويصة ولم يكن الشاب يحسب انهُ بلغ اشدَّهُ ما لم يفهم حقيقة حريَّة الارادة والقضاء والقدر وإلاَّ فلا يحق لهُ ان يتزوَّج

ذلك العصر كان عصر الفلسفة الذهبي لكنهُ كان حاملاً في اردانهِ بزور انحلالهِ . فان الفلاسفة الكبار مثل نختي وشلنج وهيجل حدَّدوا الفلسفة بانها تركيب تصوُّري للكون من مبادئ اولية اكتشفتها بعض العقول الذكيَّة . وجروا مجرى الفيلسوف سبنوزا في استنتاج نتائج عدوها لازمة من اوليات حسبوا ضرورية واغمضوا عيونهم عن شهادة الحواس وحسبوا انهم يستطيعون تعليل المحسوسات بانها نتائج لازمة عن بعض المبادئ الاوليَّة . وقالوا ان لا قيمة للاختبار من هذا القبيل لان غاية ما يستفاد منهُ تحقيق الاستدلال الفلسفي بل ان شلنج انكر عليهِ هذه الفائدة وقال ان الاستنتاج العقلي لا يحتاج اثباتهُ الى اختبار مادي لانهُ ثابت لذاتهِ فان كان الاختبار لا ينطبق عليهِ فالخطأُ في الاختبار لا فيهِ. وهيجل لم يتطرَّف الى هذا الحد في انكارهِ فائدة الاختبار لكن اعتمادهُ الاكبر كان على الاستدلال العقلي . وكان اولئك الفلاسفة يحسبون ان لا حدَّ لما يدركهُ العقل فهو يدرك الاوليات كلها بالبداهة ثم يعلم ما يبنى عليها بالاستدلال المنطقي وعلى ذلك بنى نختي وشلنج وهيجل فلسفتهم فجاءَت بناءً عظيماً نخيماً ولكن لا اساس لها في الارض وما لا اساس لهُ في الارض يتلاشى في الهواء

وبينما كان الفلاسفة الالمانيون واتباعهم يبرهنون بالاقيسة المنطقية ما يجب ان يكونهُ العالمَ اخذ علماء الطبيعة يحاولون ان يعرفوا ما هو العالم واذا بصفير الآلة البخارية ايقظ اهل

الاحلام والاوهام ونبهم الى التقدُّم العظيم الذي تقدمتهُ العلوم الطبيعية باتّباعها اساليب البحث والاختبار فقامت القيامة على فلسفة هيجل وأَفل نجمها حالاً لان الناس كانوا قد ملُّوا الابحاث الخيالية ووَدوا ان يهبطوا من سحب الخيال الى ارض الحقيقة . فانشئت سكك الحديد واتسع نطاق التجارة واقيمت المدارس الصناعية والتجاريَّة واتجهت قوى الناس كلها الى اكتشاف النواميس الماديَّة وتوضيحها واستخدامها وقامت العلوم الطبيعية مقام الفلسفة في اذهان الناس وادخل ليبغ الكيماوي المعامل الكيماوية الى المدارس الالمانية واشتهر الكسندر همبلت شهرة فائقة وشهرتهُ علمية محضة وكُشفت المكتشفات المهمَّة في فرنسا والمانيا اكتشفها الفسيولوجيون مثل ملر وو بر وفلورنس ومجندي ولوره ولونجه واضاعت الفلسفة اكليلها واحتقرها الذين كانوا يعبدونها ويتغنون بمدحها وبالغوا في ذمها كما بالغوا قبلاً في اطرائها ولم يبقَ احد يجاهر بصداقتها . وعُرِّف الفيلسوف بانهُ الرجل الذي يتكلم عن امور لا يعلمها كلاماً لا يفهمهُ احد . فانكر علماء الطبيعة كل علاقة لهم بها واستقلوا بانفسهم واغترُّوا بانهُ يمكنهم نفي الفلسفة من كل المباحث الطبيعيَّة ففسروها تفاسير لا تنطبق على قوانين العقل تفاسير رفضها العقلاء قبلهم منذ زمن طويل وصار المذهب المادي هو المذهب الغالب مع انهُ ابعد المذاهب عن القوانين العقليَّة

امور مثل هذه اضعفت عزائم الفلاسفة والذلُّ ابن الفشل ولذلك لا يُستغرَب ما ظهر من ضعفهم على اثر ما اصابهم من الخذلان حتى اضطرُّوا ان يثبتوا ان للفلسفة شأناً ما وانها تستحق ان تبقى بين العلوم

لكنَّ ما حلَّ بالفلسفة من الازدراء كان وقتياً الى اجَل محدود لان الميل الفلسفي في الانسان ارسخ من ان يزول منهُ كما قال شوبنهَوَر . واسمى ما في الانسان سؤالهُ عن علل الاشياء ولا يمُنَع عن هذا السؤال الاَّ بمنع عقلهِ عن البحث والاستقصاء وهذا امر يعزُّ ادراكهُ ولذلك فالفلسفة ليست ابنة عصر معلوم بل هي ابنة كل العصور وسيموت آخر فيلسوف حينما يموت آخر انسان ما لم يكن ذلك الانسان ابله لا عقل لهُ . وما من احد في رأسهِ ذرة من العقل الاَّ وهو يبحث ولو قليلاً عن العالم الذي هو فيهِ ونسبتهِ اليهِ وعلة ما يراهُ والغاية منهُ . ويجيب عن هذه المسائل على حسب ادراكهِ . والعلوم الطبيعية المحضة لا تقوم من غير شيءٍ من الفلسفة ولو انكرت ذلك وحاولت التملُّص منهُ كما تحاول التملُّص من داءٍ خبيث . أَلا يوجد شيءٌ من الفلسفة في مذهب النشوءِ أَوَلا يوجد في مذهب الجوهر الفرد الذي قال بهِ اولاً فلاسفة اليونان قبل المسيح باربع مئة عام وهل زالت منهُ الفلسفة لان علماء الطبيعة بيَّنوهُ واوضحوهُ . أَوَ ليس رد كل الظواهر المادية الى اصليها المادة والقوَّة امراً فلسفياً مماَّ وراء الطبيعة . أَوَ ليس ان مذهب

بقاء المادة والقوَّة وعدم تلاشيهما من الامور الفلسفية . أَوَ ليس ان رد كل القوى الى قوة واحدة انما هو محاولة الوصول الى المبدإِ الاول الذي يتوقَّف عليهِ كل شيء . اي امرٍ اقرب الى الفلسفة من ذلك . ولقد شاعت الآن الرغبة في رد المركَّبات والمتخالفات الى ما تظهر بهِ وحدتها وفي ايجاد اصل عامٍ يمكن ان تعلَّل بهِ حوادث الكون لان هذه الرغبة مغروسة في نفس الانسان وليس في طاقتهِ ان يقاوم ما في نفسهِ من الميل الى توحيد ما يعلمهُ بالاختبار وادراك كل الموجودات وكشف العلل التي تعلل بها حوادث الكون كلها

وقد يستطيع اهل كل علم على حدتهِ ان يكتشفوا الاسباب الاولى لقضايا ذلك العلم وحده ولكنهم لا يستطيعون ذلك الاَّ اذا غضُّوا الطرف عن سائر العلوم فيظهرون حينئذٍ جزءًا من الحقيقة لا الحقيقة كلها . فقد يمكن ان تفسَّر ظواهر الطبيعيات بفرض القوة والجواهر الفردة المتماثلة ولكن هل يستطيع الكيماوي ان يفهم ظواهر الكيمياء من غير ان يفرض ان هذه الجواهر مختلفة الصفات . وهل يستطيع الباحث عن الحياة (البيولوجي) ان يعلل الحياة بالقوى الميكانيكيَّة المحضة او هل يستطيع ان يوفِق بين ما يرى في الموجودات الحية من دلائل القصد وبين المذهب الميكانيكي . وهل يستطيع الباحث في علم العقل والوجدان ان يفسّر افعال العقل بمبادىء العالَم الطبيعي اي بالجواهر والحركة. لا بدَّ من علم يجمع هذه العلوم المتفرقة ويوفّق بينها يتناول كل الحوادث الطبيعيَّة ويوحدها ان امكن بان يجمع مبادئ العلوم المختلفة ويمحّصها ويقابل بعضها ببعض ويظهر ما تختلف فيهِ ثم يوفِّق بينها ان امكن . هذا العلم هو الفلسفة. والحاجة اليهِ ماسَّة وهي ظاهرة لا تخفى وان كان قد قدّر للناس ان يتفلسفوا فيجب ان يحكموا فلسفتهم. ولا يجوز لنا ان نترك حل المسائل المهمة مسائل الحياة ولا ان نحيلها على الصدفة او على اناس لا علم لهم ولا مهارة او هم من الغرض بحيث يحملهم غرضهم على حلها حسب اهوائهم. ومن تعلَّم احسن تعليم وتدرَّب احسن تدريب وصبَّ قواهُ العقلية على موضوع بحثهِ لجدير بحل معضلاتهِ. امور مثل هذه ارجعت الناس الى الفلسفة والناس كلهم في حاجة اليها الاَّ من لا يعقل منهم . ان من يقيس الزمن اللازم لمرور المجرى العصبي في عصب ساق الضفدع لا يستفيد شيئاً من ذلك لان مجرد العلم بالشيء لا يفيد ما لم يبنى عليهِ حكم من الاحكام اي ما لم يُستخدَم مرقاة الى اكتشاف قضية كلية مبنية عليهِ وهذا الامر اي البلوغ الى فلسفة الاشياء والافعال صار شائعاً الآن في كل العلوم الطبيعية والتاريخية بل في العلوم الدينية والرياضية ايضاً

ثم اننا اطلقنا اسم الفلسفة في السطور الماضية على ما يسمَّى بعلم ما وراء الطبيعة او علم

المبادىء الاولى او الاصول الاولى التي تبنى عليها حوادث الكون ولكن الفلسفة لا تقتصر على ذلك بل غرضها اكتشاف الحق او الحقيقة فلا تستطيع ان تعلّل ما يُعرَف من حوادث الكون ما لم تعرف كثيراً من هذه الحوادث معرفة صحيحة وحوادث الكون على نوعين نوع مادي ونوع عقلي ولذلك قسمت العلوم الى قسمين علم طبيعي وعلم عقلي مدار الاول البحث عن الاجسام المادية حيَّة كانت أو غير حيَّة وكل ظواهرها . ومدار الثاني البحث عن ظواهر العالم الباطني اي النفس او العقل . و يطلق على علم العقل الفلسفة العقلية او علم النفس (سيكلولوجيا) وهي تبحث في تحليل افعال النفس او العقل او الوجدان وتبويبها وتفسيرها وعليها يبنى علم المنطق وفلسفة الجمال (استتك) والاخلاق وفلسفة الديانة . ومن مباحثها ماهية الشعور والادراك والتصور والتذكر والهوى والغريزة والاندفاع والانتباه والارادة . كل هذه افعال من افعال العقل او الوجدان . ومن مباحث المنطق فعل العقل وقت الاستدلال والوصول الى القضايا التي يعدها صحيحة وما هي قواعد البحث والاساليب التي يجري عليها العلماء في بحثهم اي ما هي قواعد القياس والاستقراء . وعلم الجمال يبحث عمَّا يجعلنا نحكم بجمال بعض الاشياء او بقبحها بعظمتها او بحقارتها وما هي النواميس والمبادئ التي يبنى عليها الاتقان في المصنوعات الجميلة . وعلم الاخلاق يبحث عن مزايا الفضيلة ولماذا نحسب العمل الواحد صواباً والثاني خطاء وما هو المقياس الذي تقاس بهِ الادبيَّات . نشعر ان بعض الاعمال خطأ او حرام فما هي حقيقة هذا الشعور وما هو اصلهُ وكيف ينمو فينا وبالاختصار ما هي النواميس المتسلطة على العالم الادبي وكيف تظهر في حياة الانسان

ثم ان علم الاجتماع يرتبط بعلم السيكولوجيا وعلم الاخلاق ويقدّم لهما كثيراً من الافعال ومعلوم ان مدارهُ فكر الانسان وشعورهُ وارادتهُ من حيث هو عضو حي في جسم الاجتماع الانساني والغاية التي وجد لها في جسم الاجتماع والوسائط التي يستعملها لبلوغ هذه الغاية . والاجتماع الانساني نفسهُ جسم حيّ لهُ غاية يسعى اليها ووسائط يستعملها لبلوغ هذه الغاية . فما هي هذه الغاية وما هي تلك الوسائط وكيف تنال الاولى بالثانية وما هي الاجزاء التي يتكوَّن منها هذا الاجتماع ما هي عاداتهُ وقوانينهُ وكيف نشأت وكيف نمت . ذلك ما يسمَّى بعلم السسيولوجيا اي علم الاجتماع الانساني والغاية التي يقصدها هذا الاجتماع لا تنال الاَّ بانتظام الحكومة او الدولة فما هي اشكال الحكومات وكيف تبلغ غايتها . هنا يدخل علم السياسية الباحث عن هذه المسائل ونسبتهُ الى علم الاجتماع الانساني (السسيولوجيا) نسبة هذا العلم الى علم النفس (سيكولوجيا)

ثم ان فلسفة الديانة تبحث عن الامور الواقعة ضمن اختبار الانسان التي نعدها دينية فهي من هذا القبيل فرع من علم النفس لكنها لا تقتصر على ذلك بل تبحث عن الاساليب التي تظهر

بها الامور الدينية وتتبع ارتقاء الاديان لكي تكتشف المبادئ الاولى التي تشترك فيها

فعلى الفيلسوف ان ينتبه الى العلوم العقلية الاساسيَّة كعلم النفس وعلم المنطق وعلم الاخلاق وعلم الجمال وفلسفة الديانة . وهذه العلوم انما تفرق عن العلوم الطبيعية في مواضيعها لا في اساليب بحثها لان العلوم كلها طبيعية كانت او عقلية تبحث عن الظواهر وردها الى النواميس المتسلطة عليها . وما من علم يقتصر على ذكر الناموس او القانون بل كل العلوم تحاول كشف علاقة النواميس بعضها ببعض وربطها بعضها ببعض وردها الى ابسط اشكالها . فالفيلسوف الطبيعي يردُّ كل ظواهر المادة الى اصل واحد وهو القوَّة . واما العالم الحيوي (البيولوجي) فيتعذَّر عليهِ رد ظواهر الحياة الى الاصول الميكانيكية المحضة . والفيلسوف النفسي يرى امامهُ اموراً لا تعلَّل بما يعرف عن جواهر الاجسام يرى انهُ يستحيل عليهِ ان يعلل القوى العقلية بانها افعال مادية محضة . وقد يستطيع العالم الطبيعي ان يعلل حركات الكواكب في مداراتها بنواميس الحركة ولكنهُ لا يستطيع ان يعلل كيفيَّة وجود الاميبا (ادنى انواع الحيوان) ولا ابسط انواع الشعور وما احسن ما قالهُ الفيلسوف كنت في هذا المعنى وهو "ان الانسان يستطيع ان يقول اعطني مادة فاصنع لك منها ارضاً مثل ارضنا ولكنهُ لا يقدر ان يقول انهُ يصنع منها ابسط انواع النبات او الحشرات ولا ان يفسّر بالمادة كيفيَّة وجود الارادة في الدودة"

ان العلوم الطبيعية تحاول رد الافعال المختلفة التي تبحث فيها الى اصل واحد فتقول ان الحرارة والنور والصوت والكهربائيَّة كلها انواع من الحركة او القوة فهل الشعور ايضاً نوع من القوة او لهُ اصل آخر وهذا الاصل هو اصل كل الافعال الطبيعية والعقلية

هذه مسائل تستحق البحث لكن صعوبة حلها واختلاف الباحثين فيها يشيران الى امر آخر وهو ان العقل ميَّال بطبعهِ الى توحيد الامور ورد الافعال الى اصل واحد او الى الاصول الاولى فما هي فائدة هذا الميل في الوصول الى حقائق الاشياء وهل يمكننا ان نصل الى هذه الحقائق. ثم ان العقل وهو آلة المعرفة ولولاهُ ما كان علمٌ من العلوم امرٌ غامض يحتاج الى التفسير والتعليل. ونحن نجري على اسلوب واحد في كل العلوم وهو رد المعلولات الى عللها لان عقولنا تضطرنا الى ذلك افلا يوجد حدٌّ لطلب العلَل او لا نصل الى العلة الاولى التي لا علَّة وراءها بل هي علَّة العلل . وما هو مفاد هذا الميل فينا الى طلب العلل لكل المعلومات وما هي المعلومات وكيف تكون صحيحة فان العلوم المختلفة تستعمل معلوماتها من غير ان تبحث عن صحتها اما الفلسفة فلا تسلم الاَّ بما تتضح لها صحتهُ وضوح الشمس . العالِم الطبيعي يضطر ان يفرض وجود اشياء

لا يحسُّ بها لكي يعلل بعض ما يقع في عالَم الحس فهل يجوز ذلك اي هل يحقُّ لنا ان نفرض وجود موجودات لا تدرَك بالحس او نقتصر على ما يدرك بالحس . وهل نقول ما قالهُ دي بوا ريموند في الكلام عن المادة والقوة وهو ان حقيقتهما لا تدرك او نقول ما قالهُ هيكل وهو انهُ ليس في الطبيعة ما لا يمكن ادراكهُ ذلك وامثالهُ من المسائل التي تحل بالبحث عن اصل المعارف . وهذا البحث يمهد السبيل للفلسفة العقلية وما وراء الطبيعيات ويطلع الباحث المدقق على ما يزجي في فروع العلوم من كل رأي فطير . وكثيرًا ما نرى العالم الطبيعي يهزأ بالفيلسوف مستعملاً عبارات وادلة لم يعرفها لولا الفلسفة . ومثَل الفلسفة وعلماء الطبيعة في ذلك مثل الشيخ الذي حملهُ السندباد البحري على عاتقهِ من غير ان يشعر بهِ

وتاريخ الفلسفة يدلُّ على انها قد ارتقت ارتقاءً بيّنًا وما وقع فيها من الخطإ يفيد الباحثين لانهُ يحذرهم من الوقوع فيهِ ثانيةً فان من يعرف السبيل الذي لا يوصل الى المطلوب يستفيد من معرفتهِ في اكتشاف السبيل الموصل اليهِ

(ترجمت للمقتطف من مقالة في جريدة العلم العام الاميركية للاستاذ فرنك ثلي)

البانيا [1] او بلاد الارناؤوط

ليس في هذه الايام بلاد تهدّد دعائم السلم في اوروبا اكثر من البلاد الالبانية وهي قريبة من مراكز العمران يحدها الجبل الاسود شمالاً وبلاد اليونان جنوبًا ولها ساحل طويل يمتدّ على البحر الادرياتيكي المسمَّى عند العرب ببحر البنادقة الفاصل بينها وبين ايطاليا ومع ذلك لا يُعرف عنها اكثر ممَّا يُعرف عن مجاهل الصين لصعوبة التوغل فيها. قاعدتها مدينة اشقودره على بحيرة تسمى بهذا الاسم يوصل اليها بطريق مركبات تبتدئ من بلدة كطارو في دلماطيا مارةً بستينيا عاصمة الجبل الاسود الى ان تنتهي عند ريجكا من قرى هذا الجبل فينقل منها الى باخرة تعبر البحيرة الى اشقودره ويلزم لقطع هذه المسافة يومان على الاقل . ويمكن الوصول الى اشقودره من بلدة مدو وهي ثغر الباني على الادرياتيك

وتنقسم بلاد البانيا الى مقاطعات صغيرة يسكنها قبائل من الارناؤوط . ويتعذر على السائح الدخول اليها لما في ذلك من الاخطار . والبلاد تابعة للدولة العلية وفيها حامية من

(١) معربة ببعض تصرف عن مقالة نشرها في احدى المجلات الانكليزية سائحان من الانكليز تجولا في بلاد البانيا الداخلية من عهد قريب وسطرا ما رأياهُ فيها مرأى العين

الجيش العثماني الاَّ ان سلطة الحكومة فيها اسمية لا يعتدُّ الشعب بها وطبيعة البلاد تساعد اهاليها على عدم اتباع الاحكام والامتثال لها لانها جبال شامخة وعرة المسالك والسكان لا يهابون احدًا ولا قيمة عندهم للحياة وهم دائمًا مدججون بالسلاح يحسبون كل غريب يطأُ ارضهم جاسوسًا ارسل ليطلع على مواقع الضعف فيها ويحرمهم الاستقلال

واشهر هؤُلاء الاقوام قبيلة تدعى الغزينية تسكن سهلاً طويلاً ضيقًا يحيط بهِ سور من الجبال المنيعة اذا دخل ارضها غريبٌ فلا تدعهُ يخرج سالمًا . وهذه القبيلة لا تمنع الغريب من دخول ارضها ولكن لا تمر ساعة على وصولهِ حتى يجتمع مشايخها ويقرروا قتلهُ ثم يعينوا من ينفذ ذلك . ويلتزم الغريب ان يأْخذ جوازًا من رئيس كل قبيلة لكي يتمكن من الجولان في داخلية البلاد الالبانية ويعين الرئيس رجلين او ثلاثة ليسيروا معهُ ويكونوا مسئولون عنهُ باموالهم وارواحهم اذا انتابهُ اذًى . وعند مبارحتهِ اراضي هذا الرئيس يفعل مثل ذلك مع رئيس القبيلة الثانية التي يجتاز ارضها وهذه الطريقة الوحيدة التي يمكن للغريب ان يسيح بها في هذه البلاد ما عدا بلاد الغزينية ومقاطعة أُخرى لا يسمح اهاليها للغريب في الدخول اليها ايًا كان

وبلاد الغزينية واقعة على حدود الجبل الاسود وهي صغيرة لا يزيد عدد سكانها على عشرين الفًا الاَّ انهُ اذا مس احد استقلالها بسوءٍ ففي امكانها ان تجمع نحو ثمانية آلاف رجل من الاقوياء المسلحين ويتسارع حينئذٍ الرجال والاولاد والنساء الى حمل السلاح للدفاع عن الاوطان والذود عن الحرية التي يتمتعون بها . ويرسم اهل الجغرافية بلاد الغزينية على الخارطة كانها جزءٌ من البانيا ولكنها في الحقيقة بلاد يسكنها قوم مستقلون بانفسهم لا يميلون الى احد ويفضلون الموت على تغيير شيءٍ من حالتهم . وهم اكثر الالبانيين ميلاً الى سفك الدماء غدارون يقضون معظم ايامهم في مناجزة اهالي الجبل الاسود المجاورين لهم ومناوشتهم القتال وهم لا يقبلون غريبًا بينهم الاَّ اذا كان جانيًا هاربًا من وجه العدالة فيعدون جنايتهُ كجواز لهُ . وبين بلادهم والجبل الاسود غابة كبيرة يختبيءُ بين اشجارها اربعة او خمسة من الاشقياء حتى اذا اقتربوا من حدود الجبل فتكوا بمن اوقعهُ سوءُ طالعهِ بين ايديهم . وفي وسط هذه الغابة طريق الى الجبل الاسود مشهور بكثرة ما يقع فيهِ من حوادث القتل والسلب وعلى جانبيهِ كثير من الاحجار المنقوشة نصبت لتدل على الاماكن التي سقط فيها المسافرون الابرياءُ مقتولين بايدي هؤُلاء الاشقياء . على ان هذا الطريق يعد من اهم طرق البلاد لانهُ الطريق الوحيد الذي يجتاز اراضي هذه القبيلة ولكن لا يمكن لمسافر ان يمر بهِ الاَّ اذا كان مستصحبًا

نفرًا من الرجال شاكي السلاح وعلى غاية الانتباه والحذر لانهُ لا يُعلم من اي جهة تطلق الرصاصة التي تصوب اليهِ على حين غفلة . ولا يتوهمن القارئ ان اهالي الجبل الاسود يقاسون هذه الاهانات وهم صاغرون بل كثيرًا ما ينزلون هم ايضاً على بلاد الالبان ويأخذون بثار من قتل من مواطنيهم. وعوائد هذه القبائل واحوالها غريبة يسر الانسان الاطلاع عليها على ان ضيق المقام يحول دون اشباع الكلام عليها فلذلك نذكر القليل منها.

ان لباس قبيلة الغزينية يشبه لباس بقية الالبانيين وهو سراويل بيضاء ضيقة مزينة بنقوش جميلة على اطرافها وتطريز اسود عريض ويعلوها قميص ابيض فوقهُ سترة صغيرة سوداء بنصف اكام وكثيرًا ما يحملون في وسطهم ذخيرة من الرصاص وطبنجة وخنجرًا ويعلقون بندقية على كتفهم ويلقون على رأسهم قماشاً طويلاً ابيض ويلفونهُ حول رقبتهم كالعرب . وفي الصيف يبدلون السراويل الضيقة بسراويل واسعة من القطن وهذا لبس الطبقة السفلى على الدوام. وفي بعض المقاطعات الاخرى يختلف الزي قليلاً عن هذا فمنهم من يلف قماشاً ملونًا على رأسهِ ومنهم من يلبس طربوشاً ابيض تمييزًا لهُ عن المسلمين الذين يلبسون الطربوش الاحمر. واغلب سكان البانيا يدينون بدين النصرانية على مذهب كنيسة رومية وهم شديدو التعلق بهِ ويسمى الاتراك الذين اعتنقوا الاسلام من اهل الجبال ارنؤوطاً. وتساعد الدولة النمسوية الاكليروس الالباني مساعدة مالية كبيرة حتى تبسط بواسطتهِ نفوذها على البانيا وقد اسست ايطاليا فيها عدة مدارس لتأييد نفوذها ازاء نفوذ النمسا واهم هذه المدارس ان لم يكن احسنها في اشقودره وعدا ذلك فلا مدارس في البلاد كلها ولا اثر للتعليم فيها حتى ان اللغة الالبانية نفسها ليس لها اجرومية لضبط قواعدها . واكثر الاهالي اميون

وقد روى السائحان الانكليزيان اللذان كتبا هذه المقالة انهما حضرا قداساً أُقيم في الجبال تحت القبة الزرقاء وكان منظر الالبانيين عجيباً مدهشاً فانهم لما جاؤوا للصلاة نزعوا عنهم سلاحهم وعلقوا بنادقهم على الاشجار وكانوا يركعون ويسجدون بكل خشوع امام هيكل بسيط نُصب امامهم مع انهُ كان بينهم نزاع وقتال وقبيل هذا الاحتفال بيومين قتل صبيان منهم عمر احدهما ١٥ سنة والآخر ١٦ سنة رجلاً رمياً بالرصاص على مسافة ٤٠٠ قدم . وهم اذا ارادوا قتل امرئ فلا يهابون احدًا . فيختبئون خلف صخرة ويطلقون الرصاص عليهِ واحياناً يحزون رأس القتيل ويأتون بهِ الى منزلهم كعلامة انتصار ليشاهدهُ اقرباؤهم واصحابهم ويعجبوا ببسالتهم. ولا يستصعبون ذلك بل يعدونهُ من اسهل الامور عليهم

ولكل قبيلة رئيس تخضع لهُ ويعيش اعضاؤها سوية كعائلة واحدة لا يتنازعون فيما

بينهم ولكنهم كثيرًا ما يتقاتلون مع القبائل المجاورة لهم . ويفصل في المسائل الجزئية شيخ البلد وليس لهم سجون فاذا ارتكب احدهم جناية كبيرة ارسلهُ الرئيس الى تركيا ليسجن فيها . واذا كانت الجناية صغيرة حكم على الجاني بالوقوف تحت شجرة او في زريبة البقر مدة تختلف من ساعة الي خمسة عشر يوماً . وهذا العقاب يشابه كثيرًا الاقتصاص من الاولاد في المدارس

وقد يجتهد الحكام الاتراك احيانًا بتأييد سلطتهم على هذه القبائل ولكن بلا جدوى كما ترى من الحادثة الآتية . وهي ان رجلاً من الالبان ضبطهُ رجال الحفظ في احدى المدن لقتلهِ آخر فأُرسل الى السجن ليعاقب على ما جنتهُ يداهُ فنزلت من الجبال عصابة من قبيلتهِ واخبرت الوالي انهُ اذا لم يطلق سراحهُ ويرجعهُ معها في مدة اربع وعشرين ساعة تهجم القبيلة كلها على البلد وتحرقها فامتثل الوالي وافرج عن رفيقهم. والالبان معفون من الخدمة العسكرية لا تأخذ الدولة جندًا منهم ولكن اذا حدثت حرب يقدمون انفسهم للخدمة متطوعين

ومن عوائد اهالي هذه البلاد الاخذ بالثار وهو شائع عندهم شيوعًا كبيرًا فاذا قتل رجلٌ واحدًا من قبيلتهِ او من قبيلة أُخرى والتجأ حالاً الى منزل اقرب قريب للقتيل وشرح لهُ واقعة الحال وجب على هذا القريب حماية الجاني ما دام تحت سقف بيتهِ وعليهِ ايضًا ان يوصلهُ بسلام الى حدود اراضي القبيلة ولكنهُ يقول لهُ عند ما يفترق عنهُ ان حمايتهُ لهُ قد انتهت الآن فيحق من بعد ذلك لاقارب المقتول قتل الهارب في اي مكان وجدوهُ حتى ولو بعد مضي سنين ولا ينجو ابنهُ او حفيدهُ بل يؤْخذ منهم بثار من قُتل. في بعض الاحيان يجوز للقاتل ان يدفع دية المقتول وهي تختلف من مئتي جنيه الى الف جنيه حسب منزلة القتيل ولكن الصلح الذي من هذا القبيل لا يخلو من خطر ولو كان كلام الشرف عند الالباني ضمانًا على صدقهِ

واذا قتل رجل آخرَ من قبيلة مجاورة لقبيلتهِ فلا يفتش اقارب القتيل واصحابهُ عن القاتل نفسهِ بل يقتلون حالاً اي شخص يلقونهُ من عائلتهِ او قبيلتهِ ولكن اذا اهان القاتل المقتول فلا ينجو حينئذٍ من القصاص مهما فعل واذا هرب فيؤْخذ الثار من اقرب اقاربهِ وقد يحدث مرارًا ان القاتل لا يهرب مع علمهِ انهُ سوف يقتل لكي لا يقع حيف على اقاربهِ

روى كاتبا هذه المقالة خبرًا من هذا القبيل شاهداهُ باعينهما قالا

كنا نجول يوماً في احدى المقاطعات الالبانية فطرق آذاننا بغتة صوت اطلاق البنادق ثم رأينا الفلاحين الذين كانوا يعملون في حقولهم قد حملوا بنادقهم التي لا تفارقهم ابدًا وجعلوا يركضون نحو غابة مجاورة وهم يحشون بنادقهم بارودًا وبعد قليل ابصرنا رجلاً يسرع الينا ويستنجد بنا ولم يكن الأ كلمح البصر حتى احاطت بنا شرذمة من الالبان وهم مدججون بالاسلحة يصيحون

ويصخبون فما زلنا نلاطفهم ونلاينهم حتى خلّصنا الرجل منهم وكان شابًّا بهي الطلعة وحكايتهُ كما اخبرنا هي ان امرأَة متزوجةً احبتهُ فلم يعبأْ بها فتهددتهُ بكسر مغزلها امامهُ اذا لم يحبها وذلك يعد عند النساء الالبانيات اكبر شيءٍ تهدد بهِ المرأَة الرجل الذي يرفض حبها او يهينها ومعناهُ انها سوف تقتلهُ بيدها او تسلط رجلاً آخر عليهِ . فلما لم يرَ بدًّا من اجابتها اختار اهون الشرين وحملها الى منزلهِ ومن ذلك اليوم صارت حياتهُ تحت الخطر لان زوجها من اهل اليسار ولما رآها هربت مع عشيقها اعلن انهُ يعطي مبلغًا وافرًا من المال لمن يأتيهِ برأسهِ فكثر طالبي هذا المسكين والالبانيون لا يستكبرون قتل رجل بريءٍ فكيف يكون حالهم اذا علموا ان من وراء عملهم مغنمًا فبينما كان يشتغل في حقلهِ اطلق عليهِ رجل بندقيتهُ فقابلهُ بالمثل فرماهُ جريحًا وهرب الينا ومن بعد ما قصَّ علينا حكايتهُ اخذنا العجب لما رأَيناهُ راجعًا الى منزلهِ ولم يطلب منا الاَّ بندقية جديدة وبارودًا حتى يمكنهُ على الاقل ان يدافع عن نفسهِ لان بندقيتهُ كانت قديمة ولم يكن معهُ الاَّ قليل من الذخيرة

ولما سأَلناهُ ان يبقى معنا اجابنا كيف يمكنني ان اهرب واخوتي يعيشون هنا ويملكون حقولاً واراضي فاذا هربت يقتلونهم لا محالة فتعجبنا من شجاعتهِ وشهامتهِ ولا بد ان يكون قد لقي حتفهُ الآن . وامثال هذا كثيرون في هذه البلاد لا يعلمون في اي ساعة يلقون حتفهم وعوضًا عن ان يهربوا ويعرِّضوا اقاربهم للخطر تراهم يلبثون في منازلهم ينتظرون الموت بقلوب واجلة وعيون شاحبة

ومن غريب تلك العوائد ان النساء على انحطاط منزلتهن عند الالبانيين تراهم يحترمونهنَّ كثيرًا في مسأَلة الثار وقتل المرأَة يُعدُّ عندهم جناية لا تغتفر وعارًا على القبيلة يلزم ازالتهُ بكل الوسائل حتى ان المرأَة اذا وقفت الى جانب زوجها فلا يمكن لاحد ان يطلق عليهِ بندقيتهُ خوفًا من ان يصيبها بسوءٍ

واشقودره عاصمة البلاد الالبانية تحتوي على نحو اربعين الف نسمة جلُّهم من المسلمين وبها حامية كبيرة من الجند الشاهاني وهي مقسومة الى قسمين قسم يسكنهُ الافرنج وقناصل الدول ويدعى حيّ القناصل وقسم يسكنهُ الوطنيون ويدعى حيّ الاسواق ولا يسمح للالبان سكان الجبال دخول المدينة الاَّ اذا كانوا عزلاً من السلاح فترى الذين يؤُمونها منهم يوم السوق يسيرون في الازقة وليس عليهم سوى حزام فيهِ الخرطوش

ويصادف الغريب الذي يقدم هذه المدينة صعوبات جمة من العمال الاتراك الذين يؤَشرون لهُ على ورق جوازهِ ما لم يكن قادمًا من جهة الجبل الاسود بطريق البحيرة وفي عزمهِ مبارحة

البلدة حالاً . وكذلك يفتش عمال الجمارك القادم بكل شدة ولكن يمكن تخفيف ذلك ببعض دريهمات يعطيها المسافر للعامل وتمنع الدولة ادخال الاسلحة الى هذه البلاد ومع ذلك ترى كل واحد من الالبان يحمل السلاح وهذا من الغرائب

والقسم الذي يسكنهُ الاجانب نظيف مرتب منظم خلافاً لحي الاسواق فان طرقهُ معوجه وتكثر فيهِ الاقذار كما هو الحال في اغلب المدن الشرقية

ويقيم في اشقودره اسقف البانيا الكاثوليكي وفيها كنيسة كاتدرائية كبيرة

وستنتهي المسئلة البلقانية يوماً الى نزع الاستقلال النوعي الذي تتمتع بهِ البانيا الآن ولكن الدولة التي تكون هذه البلاد نصيبها تصادف صعوبات في اخضاعها اكثر مما لاقت النمسا في اخضاع البوسنه والهرسك. ونفوذ النمسا الآن عظيم بواسطة الكنيسة ولهذا السبب قد عينت لها في اشقودره قنصلاً جنرالاً وقنصلاً ووكيل قنصل

توفيق كلداني

عروسة النيل

الفصل السادس والعشرون

كان مضجع اوريون تلك الليلة مضجع العاشق الواله يطارد فيهِ الوجدُ الكرى ويهزم الحنين الراحة فظلَّ يتقلب على مثل شوك القتاد حتى انشقَّ الفجر فنهض وارتدى ثيابهُ وركب جوادهُ وسار يطلب الفسطاط ليُوْدِع صالحاً اخا هاشم التاجر نصف مال باولين عملاً بما اتفقوا عليهِ وكان الطباق بين المدينتين مدينة الفراعنة وعاصمة العرب على اتمهِ فبدت هذه بمظاهر النشاط والشباب وانزوت تلك وعليها امارات الضعف والانحطاط والشيخوخة حتى خيل لاوريون ان منف جثة محنطة في العدوة الواحدة والفسطاط شاب في مقتبل العمر وشرخ الشباب في العدوة الاخرى . واكبر ما رأى في وجوه العرب من سيماء النجابة والنشاط فانَّى التفت ابصر عيوناً ينبعث منها الذكاء وحدَّة الذهن ووجوهاً ارتسمت فيها البسالة والاقدام وانوفاً شماء ابى اصحابها الاَّ الانتصار على المصاعب وتذليل العقبات فسار في الشوارع المزدحمة بالخلق حتى وصل الى حانوت صالح فترجل ودخل يتبعهُ نيلس خازنهُ وفيما هما هناك ابصر عبادة بين المارَّة فحيَّاهُ هذا تحية الصديق فردَّ اوريون التحية باحسن منها لكنَّ انقباضهُ من الرجل عاودهُ وخطر بباله ما قالهُ عمرو. وعاد عبادة فمرَّ بهِ ثانية وثالثة فادرك اوريون انهُ لامرٍ ما يفعل ذلك لكنهُ لم يكد ينجز ما جاء لاجلهِ حتى نسي عبادة ولما قضى غرضهُ رجع الى منف وسار توًّا الى البيت فرأى

الدار غاصة بالاتباع والحشم وقيل لهُ ان البطريرك في البيت ثم اتاهُ سبك القهرمان فقال لهُ " امك تدعوك اليها " فتبع القهرمان على مهل حتى دخل عليها فحيَّا البطريرك بالتعظيم ووقف مطرقاً برأسهِ فقال البطريرك اهلاً وسهلاً بابن صديقي الحميم فقد تركتك يافعاً واراك اليوم رجلاً كامل الخلقة بهيّ الطلعة اما وقد انهيت حديثي مع امك فساخصك بجزءٍ من وقتي وشيءٍ من ارشادي . فاجاب اوريون وقال هلمّ بنا الى مكتبة ابي وتقدمهُ فتبعهُ البطريرك حتى اذا ما صارا هناك قال اذاً انت حفيد مينا العظيم وابن جريج المقوقس الذي كان حاكم قطيعي المحبوب في منف فهات يدك

— امرك مطاع يا مولاي لكني اظن انهُ لا يحلّ للابن ان يصافح العدوّ الذي لم يستأصل الموت عدوانهُ فاهان الاب في قبرهِ واهان باهانتهِ الابن ايضاً

— لا يصعب على المسيحي ان يغفر لعدوّ خاطيءٍ ما اقترف من الذنوب وان من دواعي السرور عندي الصفح عن فتى يزعم انهُ أُهين باهانة والدهِ المتوفى فغيظك لا يؤْذيني ولكنهُ دليل على حاجتك الى تلك الصفات التي يجب على المسيحي ان يتحلى بها اعني الطاعة والتقوى والتسليم فاعلم اذاً انني كبطريرك هذه الامة اطالب كل يعقوبي بالخضوع لاوامري دون تردد كأَنها اوامر العلي فماذا يكون من امرنا اذا تفرقنا وسار كل واحد منا في السبيل الذي يهواهُ فلا يمرُّ بنا قرن واحد حتى تتداعى اركان ايماننا ونتفرق ايدي سبا فتعلَّم ايها الفتى المعجب بنفسهِ المدل بمقامهِ وشبابهِ الخضوع لامر الله وارشاد نائبهِ واصغِ الى ما اقولهُ لك ترَ وجه الخطإِ في سوءِ ظنك بي فانت تدعوني عدوّ ابيك اخطأْت فقد كنت احبهُ محبة الشقيق لشقيقهِ وكنت اودّ لو استطيع ان امطر على ضريحهِ سحائب الرحمة والرضوان اللذين تسجهما الكنيسة وحدها

— لكنك حرمت صديقك الحميم هذا الذي تدعي حبهُ من نعمةٍ تمنحها الكنيسة لاشقى اللصوص والقتلة اذا تابوا وحلَّهم الكاهن من ذنوبهم

— وابوك حلَّهُ الكاهن — نعم انني حظرت على رجال الدين الاحتفال بدفنهِ أَفتعلم علة ذلك

— اردتَ ان توصمهُ امام الملإِ بوصمة تسليم البلاد الى الغزاة

— اراك تحسن قراءَة الافكار فهب ان غرضي كان تشهير ابيك في عيون اهل منف فاريهم العقاب الذي يحلُّ بمن يسلِم بلادهُ الى العدوّ أَفلا يصحّ ان اكون مصيباً في ما فعلت وان كنت مصيباً فهل أُلام على ما فعلت

— اتزعم انّ ابي دعا الغزاة الى مصر

— كلاّ فقد اغار العرب عليها من تلقاء انفسهم

— الم تتنبأ ايام كنت في المنفى الذي نفاك اليهِ الروم ان العرب سينكلون بالروم ويجلونهم عن هذه الديار

— نعم فقد كان الامر كذلك بحسب ما اوحى بهِ الله اليَّ على انهُ كشف لي الستار عن امور اخرى ايام محنتي فاحذر يا فتى لئلاَّ تتمّ النبوة باسرها فيسقط بيت مينا ويمحى اثرهُ فيصبح كالعصافة التي تحملها الريح وتذريها في انحاء الارض

— ان نبوتك اثرت في ابي تأثيرًا عميقاً فلما غُلِب الروم وافتيتَ انهم كفرة كانت فتواك اكبر معزّ لهُ واقوى سند يستند اليهِ ويعلم الله انهُ كان يكرههم كرهاً شديداً بعد ان قتلوا ابنيهِ ولكنك لو قرأت كتابهُ الذي بعثهُ الى الامبراطور يبرئ فيهِ نفسهُ من تهمة الخيانة لا تضح لك حرج موقفهِ وشدة حكمتهِ فقد قال فيهِ

" ان هؤلاء العرب على قلتهم اقوى منَّا على كثرتنا وواحدهم بالف تراهم يطلبون الموت ويفضلونهُ على البقاء ويخوضون غمار القتال كمن لا وطن لهُ ولا اهل يعود اليهم ويعدون من يسقط منهم قتيلاً في حومة الوغى شهيدًا مصيرهُ الجنة وهم ابعد الناس عن حب زخارف الدنيا ونعيمها اما نحن فنكرهُ الموت ونحبّ الحياة فلن نقوى عليهم "

— وما الذي تستخلصهُ من هذه الرسالة

— ان ابي لم يسلّم البلاد الاَّ مضطرًّا

— لكنهُ لم يكتفِ بذلك بل انحاز الى العرب فصادقهم واحبهم وفي ذلك اثم كبير ألا ترى انهُ في كتابهِ هذا مدح شدة تعبدهم وتدينهم

— ان ابي كان منطوياً على حبّ العدل مطبوعاً على الاستقامة لا يراعي فيها خليلاً ولا يفرق بين الصديق والعدوّ

— قلت لك انهُ مال الى العدوّ فلمَّا آنس منهُ شعبنا هذا الميل اخذوا يقلدونهُ فانزاح الوف منهم عن معتقدنا واعتنقوا ايمان العرب بعد ان رأوا واليهم الحكيم يمالئهم ويعدّهم خير اصدقائهِ فرأيت ان اتغلّب على حبي لهُ وصداقتي لبيتهِ حفظاً لركن الدين ان يتهدّم فحظرت على رجال الدين ان يكرموهُ الاكرام الذي يستحقهُ فاخفض من غيظك واقبض على اليد التي يقدمها اليك راعيك . فصدع اوريون بالامر كارهاً وحينئذٍ غيَّر الحبر مجرى الكلام فاخذا يبحثان في مواضيع شتَّى حتى جرّهما الحديث الى الجواهر فسألهُ البطريرك عمَّا اتضح من امر الزمردة فاجابهُ اوريون ان التحقيق لم يكشف لهم الحقيقة الى ان قال ولم يقصد ابي ان تكون الزمردة في جملة ما اهداهُ الى الكنيسة وكان يتكلم وهو يخشى ان امهُ وسوسنة اطلعتا البطريرك على ما جرى

بشأنها امَّا هذا فاصرّ على طلبهِ وامرهُ بتجديد البحث زاعمًا انها ملك الكنيسة فقال واذا لم تأتِ بها اتخذت جميع الوسائل للحصول عليها فوعدهُ اوريون خيرًا وحينئذٍ وقف البطريرك وقال والغيظ بادٍ في وجههِ

— لقد عجمتك يا ابن المقوقس وبلوت سرّك فعرفت انهُ ينقصك التواضع وعلمت انك لا تزال تجهل سلطة الكنيسة ونفوذها وقد ادركت ممَّا فاهت بهِ والدتك انك على شفا جرف هارٍ فقد حدثتك نفسك بالتزوج بابنة ملكية فعللت نفسك بالتمتع بملذات هذه الدنيا الفانية والتلهي بغرورها وكأن ذلك لم يشبع مطامعك فذهبت الى الفسطاط وعرضت ان تتطوع في خدمة الغزاة فاعلم اذًا انني لا آذن لاغنى قومي وارفعهم مقامًا واعرضهم جاهًا ان يضلَّ الوف اليعاقبة بسيرتهِ فاطعني او ياتيك زمان تذرف فيهِ الدمع دمًا ثم سكت ساعة وقال وقد اتيتك اليوم آمرك بقطع الربط التي تربطك باعداء امتك ودينك فانزع من قلبك حب الفتاة الملكية فان حبها يطوّح بك في مهاوي الهلاك

فثارت عزة النفس في اوريون ولم يطق السكوت فصاح قائلاً

— لن اقلع عن حبها فافعل ما تشاء فانا ابن الكنيسة وسابقى بنعمة الله في حظيرتها كما كان آبائي من قبلي لكنني لا اهجر الفتاة التي احبتني وكانت رسول السلام اليَّ فارشدتني الى الواجب الصحيح فاعلم انني لست بناسٍ عظم سلطتك ونفوذك فمرني اطعك على ان لا تبغي المستحيل فلست بناقضٍ عهدي معها لابرهن على اخلاصي لك اما العرب .... فقاطعهُ البطريرك وقال

— حسبك ما قلت فهانذا مسافر الى الصعيد وعليك ان تقرَّ على رأي ما قبل عودي منهُ فتختار لنفسك ما يحلو وانت في سعة من الوقت فزواجك بالملكية الهرطوقية على رفعة مقامك لممَّا لا يطاق امَّا صداقتك للعرب فسنرى فيها في فرصة اخرى فاذا اطعتني في امر زواجك — ولك ان تختار اية فتاة يعقوبية بعدها — عاملتك باللين والرفق وعضدتك ومنحتك بركة الكنيسة بدل لعنتها

— لا استطيع ذلك ولا افعلهُ ولن افعلهُ

— اذًا في استطاعتي اكراهك عليهِ وحينئذٍ تحسّ بثقل وطأتي

— لا ريب عندي في قدرتك ولكن اذا احرجتني اضطررت ان اطلب السعادة التي تتعطش اليها نفسي في عدوة النيل الشرقية

— لا اراك تجسر على ذلك ثم خرج من الغرفة وهو يتميز غيظًا

الفصل السابع والعشرون

فجلس اوريون يفكر في ما دار بينهما واحسَّ بان البطريرك سبر غورهُ وانتزع سرَّهُ فاشتدَّ بهِ الحنق والغيظ وقال في نفسهِ لقد احسنت امي في كتمانها عنهُ خبر لعنة ابي لي على فراش الموت ولكن من يضمن لي انها لا تبوح بهِ اذا عاد اليها واستطلعها طلعها. وفيما هو كذلك فطن الى ان البطريرك خرج وحدهُ فشق عليهِ ذلك لعلمهِ انهُ خرْق في حقوق الضيافة والآداب فاسرع الى الدار واذا بامهِ هناك والبطريرك يودعها فدنا منهْ اوريون مودعاً فتلقاهُ باسماً كانهما صديقان حميمان وفيما هما سائران نحو الباب رأى البطريرك تمثالين من صنع اليونان يمثلان العدل والحق وفي يد العدل سيف وفي يد الحق مرآة ينظر فيها فوقف وقال

— ارى اباك اغضى عن اشارتي برفع هذين التمثالين فليس بيت المسيحي مكانهما لاسيما بيتاً كهذا تقصدهُ العامَّة من اطراف البلاد اما نحن فندرك الغرض المقصود منهما واما العامة فلا وقد يؤَولون ذلك الغرض على خلاف المطلوب واودُّ ان لا اراهما في هذا المكان بعد عودي اليهِ ولما بلغا الدار السفلى لثم اوريون يدهُ وجثا الحشم والخدم فركب مركبة سوسنة وعاد اوريون الى امهِ وهو يحسبها معياة بعد مقابلتها للبطريرك فاذا هي على خلاف ذلك فداخلهُ العجب واخذ يسائل نفسهُ عما حدث فدعتهُ الى مرافقتها الى الكنيسة فلبى الدعوة وركبا مركبتها وفي الطريق طفقت تكلمهُ في امر زواجهِ بباولين قائلة اني اسمع صوتاً في قلبي يحدثني بخراب بيت مينا اذا اختلط دمنا بدم الملكيين وقد زادني حديثي مع البطريرك ايقاناً بصدق هذا الهاجس فتوسل اليَّ البطريرك ان اقنعك بهجر ابنة توما فعلمت ان الصوت صوت الله . فاخذ اوريون يبدّد اوهامها وحاول ان يسكن مخاوفها وينزع اضطرابها فذكَّرها بوعدها لابيهِ وهو في النزع وما قاستهُ باولين من جرَّاء تردده وما زال كذلك حتى بلغا الكنيسة فلبث فيها نحو ساعتين وفيما هما عائدان الى البيت استولى التعب على نفورس فاسندت رأْسها الى كتف ابنها ونامت فلما وصلا الى المنزل دعا الخدم فحملوها الى غرفتها وهي نائمة ولما فرغوا فارقها وذهب توًّا الى غمالائيل الصيرفي فابتاع منهُ الماسة غالية وكلفهُ ان يرسلها الى اخيهِ في القسطنطينية وذاك يدفعها الى نسيبة يوستينوس ثم جلس الى مكتبتهِ فخطَّ كتاباً اليها يتوسل فيهِ ان تعيد اليهِ الزمردة مستعيضة منها بالالماسة وبعد ان ختم الكتاب عاد الى البيت فتناول الغداء وسأل عن ماري فقيل لهُ ان الحمى عاودتها فاسرع الى غرفتها وقرع الباب وانتظر بضع دقائق قبل ان سمع ماري تدعوهُ الى الدخول فدخل ورآها مضطجعة في سريرها بقرب النافذة وعلى مائدة امامها باقتان من الازهار احداها ذابلة والثانية نضرة فراعهُ ما رآهُ من شحوب لون الفتاة

وضعفها وتنبه الى احمرار وجنتيها فعلم انها الحمى فهشت لهُ ماري واومأَت اليهِ بالجلوس فجلس بجانبها وامسك بيدها وقال ازارتك جدتك اليوم فهزت الفتاة رأْسها وبدا الحزن في وجهها فسأَلها قائلاً "ومن اتاك بهذه الازهار" فاضطربت ولم تجب ولم يخفَ عليهِ علة اضطرابها فندم على سؤَالهِ ثم اجال نظرهُ في الغرفة فرأَى مروحة من ريش النعام فقال وما هذه فصبغ الاحمرار وجهها ووضعت اصبعها على شفتيها علامة السكوت فقال اذاً كاترينا هنا وهذه مروحتها فاين هي الآن فاشارت الى الغرفة الملاصقة فهمس اليها وقال وما غرضها من المجيء فقالت

— اتت سرًّا في قاربها وكانت قد سبقت فارسلت انوبيس يسأَلني عما اذا كنت اسمح لها بالمجيء فاجبت بالايجاب ثم اخذت تبكي فقال اوريون

— علامَ البكاءُ فقد اتيتك ببشارة تفرحكِ . رأَيت باولين امس فكلفتني ان احمل سلامها اليك وهي تدعوك الى الذهاب الى بيتها والاقامة فيهِ ريثما تبرئين فاكتمي السرّ حتى اتمكن من اقناع جدتك بوجوب نقلكِ وقد اطلعتكِ عليهِ كي تسرّي فتنامي الليل فلما سمعت كلامهُ غلب السرور عليها حتى ابكاها وحينئذٍ سمعا المهذبة تخاطب شخصاً في الغرفة الاخرى وتقول علامَ هذا التمنع فماري تسرّ برؤْيتك ومن لا يفرح لرؤْية اصدقائهِ ثم دفعت كاترينا الى حيث كان اوريون وماري وتبعتها فلما ابصرت اوريون ارتاعت وجمدت في مكانها والتقت عين اوريون بعين كاترينا وساد السكون برهة فاراد اوريون ان يخفف بعض جزعها فسأَلها عن كلبها فقالت ربطتهُ في دار الطير لان البطريرك لا يطيق الكلاب

— وقد رأَيتهُ لا يطيق بعض الناس ايضاً

— ذلك اذا كانوا لا يطاقون . واستمر الحديث بينهما على هذا النمط بين اخذ ورد حتى قاربت الشمس المغيب فهبت كاترينا من مكانها مذعورة وقالت

— لقد فات الوقت واخشى ان ابطيء في العودة وقد تركت قاربي في مرفإِكم افلا تزال الخزينة مفتوحة فانسلَّ منها ولا يراني احد من اهل القصر

— لكنَّ اليوم عيد والخزينة مقفلة . فشق هذا الخبر على كاترينا وبدا الجزع في وجهها واخذت تضرب اخماساً لاسداس اما اوريون فكان يفكّر في وسيلة لقطع زياراتها لماري لعلمهِ ان هذه الزيارات تعود على ابنة اخيهِ بالضرر فلما شاهد اضطرابها قال لها لا تخشي شرًّا فمفتاح الخزينة معي وانا ارافقك الى المرفإِ فنهض الاثنان وسارا معاً فاستطرقا الى الخزينة ومنها الى الباب المشرف على النيل فاخرج اوريون المفتاح من جيبهِ وهمَّ بفتحهِ لكنهُ تردّد ثم دار الى كاترينا وقال

— ما الذي يدفعك الى زيارة ماري . فاستولى عليها الخوف واثرت فيها سكينة المكان فترددت في الجواب خشية ان تعترف بالدافع الحقيقي فانها جاءت لتطلع ماري على ما تمّ بين اوريون وباولين ظنًّا منها ان الفتاة تنقل الخبر الى جدتها فتعود هذه الى اعتراض ابنها كالاول فلما سألها اوريون سكتت برهة ثم قالت شوقي الى ماري فقال قد يكون الامر كذلك وانما يجدر بكِ ان لا تستسلمي الى شوقك فقد اعلنت امك كرهها لنا على رؤوس الاشهاد ولست اشاء ان يقال اننا نرحب بكِ في بيتنا كي نعصي اوامرها ونواهيها فاذا رأيت ماري فلا تحدثيها بما يهيجها فانها سريعة الانفعال ضعيفة المزاج شديدة الذكاء وهي في حاجة الى الراحة لا سيما ساعة المرض ولا يخفى عليك ان البطريرك عدوٌّ لي ولاهل بيتي وقد سمعتِ ما دار بيننا اليوم من الحديث فوقفت منهُ على اشياء تهمك معرفتها طبعاً وقد تستخدمينها لنيل غاياتك. فامتقعت كاترينا وادركت انهُ مصيب في كلامهِ فصارت تتقلب بين الحيرة والغيظ والخوف ثم قالت

— ليس لهذا الكلام من داعٍ فلن ادخل بيتكم ابدًا ولو عرفتُ ....

— انك ستلقينني لما جئتِ اليوم

— نعم ولا انكر انني سمعت ما دار بينكما من الحديث كما قلت واي امرئٍ لا يشتاق الى الوقوف على ما يدور بين العظماء وكلاكما اعظم مَن عرفت بعد ابيك وهذا خُلُقنا نحن النساء ورثناهُ عن امنا حوّاء حتى ان التطفل يدفعنا الى اعمال غريبة امّا انا فسيئة البخت في ارتكاب الذنوب فقد اذنبت مرة بفضل اغرائك وجهلي فهدم ذنبي سعادتي ثم اذنبت اليوم ولم انجُ في الحالين

— فهمت تعريضك وعتبك عليّ في مكانهِ فاحمدي الله على انفصالنا فنحن لم نخلق لنقضي الحياة معاً ولو فعلنا لجلبنا الشقاء على نفسينا طول حياتنا واعلمي انني لم انجُ من تبعة ذنبي كما تتوهمين بل اصبت اعظم الجزاء واشدَّ العقوبة

— قد يكون ذلك كما تقول ولكن هيئتك لا تؤيد دعواك فانك لم تلبث سوى بضعة ايام حتى عدت الى تلك الفتاة فاقنعتها بحبك لها وعادت المياه الى مجاريها

— حسبك ما قلتِ ثم فتح الباب فاعترضتهُ وقالت

— لا تظن انني اكترث لوقائع حبك او يهمني امر باولين لكنني لا اخالك تنكر انك مديون لي ببعض الشيء فهل لك ان توفي دينك فتجيبني على بضع اسئلة اطرحها عليك

— حبًّا وكرامة فاسأليني اجبك

— هل عرف غيرك انني استرقت السمع — كلاَّ

— وهل تعدني انك لا تبوح بالسر

— نعم فهاتي السؤال الآخر. فترددت برهة ثم قالت قد تخالني معتوهة ولكني سأسألك ولو كلفني ذلك ما لا اطيق احتمالهُ فاقسم باعزّ الاشياء لديك انك تجيبني صدقاً وتقول حقاً

— ولكن قد يحدث ان يشمل سؤالك غيرنا فلا استطيع اجابتك

— كلاَّ فالسؤال وجوابهُ خاصَّان بي

— اذًا قبلت فاسأَلي

— لا افعل ما لم تفتح الباب حتى اذا فرغت من كلامي تمكنت من الفرار دون ان تعيقني فناولني كرسيًّا فلما فعل جلستْ وقالت ان عليك رقباء من البطريرك يتجسسون اعمالك ويتنسمون اخبارك وقد درى بزيارتك عمرًا ليلة سرت اليهِ في الفسطاط ووقف على ما دار بينكما ولما اجتمع بعمروٍ مؤخرًا انبأَهُ هذا بما اقرَّ عليهِ من اقفال نصف اديرة الرهبان والراهبات في هذه البلاد وذلك لأَنَّ عمرًا لم يفتهُ ان هؤُلاء يقضون اوقاتهم في ممارسة الصناعات المختلفة ولمَّا كانوا لا ينفقون على طعامهم ومسكنهم استطاعوا ان يزاحموا العمال من العامة فيبيعوا سلعهم باثمان لا يتسنى لاولئك مناظرتهم فيها فرأَى ان ذلك يعود بالضرر البليغ على الاهلين والصنَّاع منهم لاسيما صنَّاع المسلمين فاصرَّ على اقفال الاديرة لكنهُ لقي من البطريرك مقاومة عنيفة ولم يسلّم هذا بمطلب ذاك حتى وعدهُ بأَن يملكهُ دير راهبات الروم في منف فيضع يدهُ عليهِ ويستولي على جميع عقاراتهِ ومنقولاتهِ فعند ذلك اتفقا واقرَّا على اقفال الدير بعد ثلاثة ايام وامر البطريرك بنفي الرئيسة الى احد اديرة اثيوبيا وبنقل سائر الراهبات وتوزيعهنَّ على الاديرة الاخرى

— اهذا مجمل ما عندكِ — نعم

— ولكنكِ ذهلتِ عن سؤالك فانا مستعد لاجابتكِ

— حسبتك لا تفعل وقد كنت اخالك تعاف رؤْيتي بعد الذي جرى فاذا الامور على خلاف ما ظننت فقد اسأْت اليَّ ولكني لست حاقدة عليك ولست من اللواتي اقعدهن الدهر والسنون فانا بحمد الله غنية جميلة صغيرة السنّ والمستقبل امامي متسع الارجاء ولعلَّ خطيبي الثاني يكون اوفى عهدًا من الاول فلا ينبذني كما فعل هذا

— اودّ لو كان في طاقتي التكفير عن ذنبي

— لا تحتاج امَّا وقد هان لي ان اطرح سؤالي عليك فاجبني جوابًا صريحًا كما اقسمت ان تفعل. أَتذكر ليلة كنَّا معًا في البستان فجلسنا في ظلّ تلك الجميزة ساعة اقسمت انك تحبني

فوق كل شيء ودعوتني منية فؤادك وزهرة عمرك أَفقلتَ ما قلت حينئذٍ مخلصاً وكان حبك صادراً عن فؤادك وكنت تحبني كما تحبّ تلك التي لا اسميها اليوم . ولما قالت هذا صبغ الاحمرار وجهها وبرقت عيناها وبدا حبها لهُ فلم تستطع اخفاءهُ وكادت تسمع باذنها خفقان قلبها واحسّ اوريون بما كان يخامرها فتمنى لو ان في استطاعتهِ ان يعود الى حبها وكاد يجيبها جواباً يخفف بعض جواها لكنهُ تشدد وقال

— ان حسن طلعتكِ اليوم يوازيهِ جمالك في تلك الساعة ولست انكر ميلي اليكِ حينئذٍ على انّ الحبّ الصحيح الذي يحلّ في قلب المرء فلا يفارقهُ طول حياتهِ لا يأْتي مرتين فتناسي ما حدث وعدّلي سؤالك بعض التعديل واطرحيهِ ثانية عليّ اجبك عنهُ . . . . لكنهُ لم يكد يتمّ كلامهُ حتى مرقت امامهُ مروق السهم واسرعت الى المرفإِ

الفصل الثامن والعشرون

فوقف اوريون ينظر اليها وقد غلب عليهِ الحزن وتولتهُ الشفقة علماً منهُ بما تقاسيهِ ثم اخذ يفكرّ في ما انبأَتهُ بهِ ورأَى ثمت فرصة لابداء بسالتهِ وشهامتهِ فعزم على انقاذ الراهبات والفرار بهنّ وزاد في جرأَتهِ واقدامهِ خطر المشروع وما يحول دون انفاذهِ من المشقات فاقفل الباب وعاد الى البيت فلما دخل غرفة ماري اذا بالطبيب هناك وسمع الفتاة تقول لهُ اراك كئيباً اليوم وعلى وجهك صفرة الموت فاسمع يا عماهُ ان فيلبس يعالجني واراهُ احوج مني الى العلاج فاذا مرضت يافيلبس سقيتك من هذا الدواء الذي بعثتهُ اليّ فتعلم شدة مرارتهِ . وحينئذٍ دار الطبيب الى اوريون فتبادلا التحية وقال اوريون لي كلام معك فتردد الطبيب عن جوابهِ لكنهُ ادرك ان ماري موضوع الكلام فقال في نفسهِ لا بدّ من القيام بالواجب قبل كل شيء فلما خلا باوريون اطلعهُ هذا على ما ينويهِ من نقل ماري الى بيت روفينس فاستاءَ فيلبس وحسبها حيلة من اوريون يريد بها اغتنام فرصة وجود البنت هناك للتردد على حبيبتهِ وفطن اوريون الى ما دار في خلدهِ فقال

— ان ما تفكر بهِ ابعد الاشياء عن قصدي فلست اروم سوى خير ماري فقال فيلبس

— ان الموت يحلو لي في خدمتها ولن تجد في منف خيراً من باولين للعناية بها لكني اخشى ان يتخذ نقلها ذريعة لادراك غاية اخرى فاذا اصاب حدسي . . . .

— اخطأْت في تهمتك فلست ابغي سوى انقاذ ابنة اخي وفضلاً عن ذلك فبيت روفينس سيكون مفتوحاً لك كل يوم فاذا آنست ما يؤيد ظنك حق لك اتهامي ولا اكتمك انني سانفصل عن منف قريباً فقد دسّ بعضهم دسيسة للايقاع بقوم بررَة فعزمت على ردّ كيدهم

في نحرهم ولو هلكت وستعلم انت وغيرك ان في استطاعتي الاقدام على عمل الخير والابتعاد عما يشين المرء وليس من العدل تضحية هذه الفتاة على مذبح مناظرتنا في حب باولين

— اصبتَ ورأيي كرأيك فعم مساءً فاوقفهُ اوريون وقال لا تأخذك الحدة ولا تنقم عليَّ فباولين لم تفشِ سرَّك ولكنني اكتشفتهُ بنفسي ليلة رأيتك عندها نحو نصف الليل فاكلتني الغيرة اذ علمت ان لي مناظرًا في حبها فافرغ غيظك عليَّ وقل فيَّ ما تشاءُ بشرط ان تنقذ ماري . فوقع هذا الكلام في نفس فيلبس احسن وقع وادرك ان خصمهُ ممن تثمر الصنيعة فيهِ فزال غيظهُ وعاودهُ الحنان فوعد اوريون بانهُ يبذل جهدهُ في اقناع امهِ لتاذن بنقل باولين ثم انصرف في سبيلهِ فاسرع اوريون الى بيت روفينس وطلب اليهِ ان يقبل ماري في بيتهِ ثم مال الى باولين فانبأَها بما تمَّ الى ان قال وليتكِ رأَيتها ساعة تلقت الخبر فقد كادت تطير فرحًا ولما فرغ دعا روفينس فاختلى بهِ واطلعهُ على ما بلغهُ من عزم البطريرك على اقفال الدير وتشتيت الراهبات في انحاء البلاد وقال كثيرًا ما اهتمَّ ابي بالدفاع عن هذا الدير ومن فيهِ وارى من الواجب عليَّ اقتفاء خطواتهِ فاسعف الراهبات وانقذهنَّ . فلما سمع روفينس كلامهُ صفق صفقة الاوَّاه واخذ يندب سوء حظ ملتهِ . فطفق اوريون يعزّيهِ وقال انما اتيتك للمشورة في ما يجب علينا اتخاذهُ من الوسائل التي تؤَدي الى الغاية المطلوبة

— انا اتبع لك من ظلك وتراني مستعدًا لبذل حياتي في الدفاع عنهنَّ فهل وضعت خطة تجري عليها

— نعم فبعد غدٍ في مثل هذه الساعة

— وعلامَ لا يكون غدًا

— ان عملاً كهذا يستدعي استعدادًا كبيرًا لا يتمُّ في اثنتي عشرة ساعة فمتى حانت الساعة المعينة آتي بسفينة فترسو في مرفإِ الدير وفي العتمة اخذ الراهبات الى دمياط وسابعث رسولاً الى احد انسبائي في تلك المدينة فيستأجر سفينة تذهب بهنَّ الى حيث تريد الرئيسة

— احسنت فيالك من شهم كريم النفس فقد سفك الملكيون دم اخويك وهدُّوا ركن ابيك وانت اليوم تقابل عداءهم بالمعروف على اني لا ارى يدًا من تحذيرك العواقب فالشيخ يراها قبل الفتى فاذا درى البطريرك ان لك يدًا في انقاذهنَّ لم يهنأ لهُ عيش حتى يوقع بك

— لقد نظرت في ذلك وأَعلم انني مخاطر بحياتي ولن يعيقني خوف البطريرك عن القيام بالواجب فسر الى الرئيسة واطلعها على ما دار بيننا قال ذلك وعاد الى حيث كانت السيدات فجلس يحدثهن حتى عاد روفين فالقى عصاهُ والتفت الى زوجتهِ فقال

— تشددي واتكلي على الله فقد عزمت على القيام بعمل كبير . فامتقعت المرأة وتعلقت بهِ وتوسلت اليهِ ان يفصح عن مرادهِ . قالت ذلك وهي عالمة انهُ انما يريد التغرُّب والسفر وان غايتهُ من ذلك خدمة الغير جرياً على عادتهِ . فجلس واطلعهنَّ على حقيقة الامر وانبأهن بما عزم عليهِ من مرافقتهنَّ في فرارهنَّ فحزنت النساء وبكينَ لعلمهنَ بشدة الخطر المحيق بالراهبات فقال روفينس وقد استحسنت الرئيسة الخطة كما رسمناها ونقحتها فارتأَت ان تتخلف راهبة واثنتان من الاخوات في الدير ليقمن على العناية بالمرضى ويقرعن الاجراس واقترحت ان تساعدهنَّ في هذا العمل المبرور هيلانة وباولين

الفصل التاسع والعشرون

خرج فيلبس من بيت المقوقس وسار يعدو في الشوارع لا يلوي على احد حتى بلغ بيتهُ فالفى ابولون يكتب كعادتهِ فحياهُ وجلس امامهُ فالتفت اليهِ هذا وقال ارى التعاسة منقوشة على جبينك وكأنك الكلب يلحس اليد التي لطمتهُ فسكت فيلبس واطرق ساعة ثم اخبر ابولون بجميع ما دار بينهُ وبين اوريون الى ان قال ووجه الغرابة انني اكاد احبُّ هذا الفتى مع مناظرتهِ لي وقد استحسنت ما اقترحهُ من نقل ابنة اخيهِ الى بيت روفينس فان جدتها تكاد تقتلها على اني لا اعالجها مدة اقامتها في ذلك البيت وارى باولين كل يوم فتغرز النصال في قلبي

اذا عالجتها كانت النتيجة عكس ما تحسب فانك تعتاد رؤية باولين كما هي الآن اعني فتاة جميلة مخطوبة لرجل آخر وعندي ان تثابر على مداواة هذه الفتاة فاني احبها رغماً عن كرهي لانسبائها واقلع عن السفر وانا الكفيل لك بالشفاء من علتك . فاشار فيلبس بالقبول

— فقال ابولون هيَّا بنا اذاً نترجم بعض الفصول ثم جلس الاثنان يكتبان وابولون يقول في نفسهِ اذا داوى الفتاة فلن يغادر منف وفي خلال ذلك احفر حفرة لابنة توما تغيبها

وقضى اوريون صباح اليوم التالي في اعداد ما يلزم لفرار الراهبات فارسل الى دمياط من يستأجر سفينة تقلع بهنَّ ساعة يصلنها ثم اسرع الى المرفإ فاستأجر مركباً من مراكب النيل لينقلهنَّ الى البحر فتوفق الى استخدام نوتي مشهور ببسالتهِ وخبرتهِ وبعد ذلك عاد الى البيت فاختلى بنيلس خازنهِ نحو ساعة قضياها في كتابة وصيتهِ احتياطاً لما قد يحدث من المكروه وبعد ان اتمَّ الخازن كتابة ما املاهُ عليهِ ختما الورقة بخاتميهما وامرهُ اوريون بحفظها اربعة اسابيع فاذا لم يعد فيها فتحها واعلن ما فيها على رؤُوس الاشهاد ثم يقسم تركتهُ بين الورثة بحسب نص الوصية . ولما فرغا صعد اوريون الى غرفتهِ فلقيتهُ المهذبة واخبرتهُ ان السيدة نفورس اذنت لها وللاري بمغادرة البيت والسكن في غيرهِ ريثما تشفى الفتاة وذلك عملاً باشارة فيلبس فشكرها

وانبأها بعزمهِ على السفر وطلب اليها ان تبذل جهدها في العناية بابنة اخيهِ مدة غيابهِ ووعدها خيرًا قائلاً لست ممن يكافئون خدمات الناس بالكلام فتمنت لهُ سفرًا سعيدًا وعودًا حميدًا غير عالمة وجهتهُ . وذهب يطلب امهُ في غرفتها فتلقتهُ بالترحاب فقال يا أُمَّاهُ سأُسافر غدًا في مهمة الى الوجه البحري وقد اغيب نحو شهر فلا يقلقك غيابي فقالت ليتك تذهب الى الصعيد فتزور امرأة اخيك في ديرها فقد اتاني امس كتاب منها فحاولت قراءتهُ وجاءني الطبيب يخاطبني في شأن ماري فلم يتسنَّ لي اتمامهُ. ثم دفعت الكتاب اليهِ فتناولهُ وفضهُ فاذا بهِ مجموعة تهم وجهتها الكاتبة الى ابيهِ وكلها يشفُّ عن تعصب وسوء نية الى ان تقول "هذا وانا بحمد الله وعونهِ مستريحة من عناء هذا العالم فقد هجرت افراحهُ واتراحهُ وجردت نفسي عن ملذاتهِ نعم ان قلبي يشتاق الى ماري واودّ لو تقيم معي بعد ان اصبحتُ رئيسة هذا الدير ولكني اخشى ان يضعف قربها تقواي فيحسن بكم ان تربوها في احد الاديرة القريبة من منف" فانتفض اوريون وقالت امهُ

— لعلَّ ذلك امر الله ومشيئتهُ. فقال امَّا الآن فاهمُّ من هذا وذاك شفاؤُها من الحمى ثم ننظر في مستقبلها فلتذهب الآن حيث يريد الطبيب لعلَّ تبديل الهواء يفيدها

وفي ذلك النهار نقلوا ماري الى بيت روفينس فلما رأت باولين انطرحت عليها وقبلتها وهي تبكي فرحًا بلقائها ثم اخذت تشرح لها ما اصابها مدة مرضها وقلبها الطاهر يفيض حبًّا ودعة فاكبَّت باولين عليها تقبلها وتمسح دموعها وتعزيها وفيما هما كذلك سمعت صوت اوريون فعلمت انهُ بانتظارها فارادت النزول اليهِ فشقَّ عليها ان تدفع الفتاة عنها وهي على تلك الحال فتربصت مكانها حتى خفَّ اضطرابها فاسرعت الى اسفل وسألت عن اوريون فقيل لها انهُ ذهب وترك لها رسالة فاخذتها وفتحتها ولما قرأَتها صرخت صرخة النادم وتمنت لو اطاعت قلبها فقابلتهُ ولم ترجعهُ خائبًا بعد ان قضى يومهُ في استيفاء المعدَّات لانقاذ صديقاتها

الفصل الثلاثون

ورأى اوريون من اللياقة ان يستأذن عمرًا في السفر فركب جوادهُ وسار الى الفسطاط وكان في الطريق يفكر في باولين فقال في نفسهِ لو كان حبها لي كما تدَّعي لتخلَّت عن كل شيء واتت لمقابلتي وهي تعلم انني مفارقها غدًا وذاهب في سفرٍ قد لا اعود منهُ

ولمَّا دخل على عمرو واستقرَّ بهِ المقام طفق يحدثهُ عمَّا آل اليهِ امر الخلاف بينهُ وبين البطريرك فنهض عمرو من مكانهِ وقال لم يعد هنالك ما يمنعك عن اعتناق الاسلام فاذا فعلت ولَّيتك عمل ابيك رغمًا عن حداثة سنك ويشق عليَّ السفر من هذه البلاد وليس في منف عامل

من اهلها . فلما سمع اوريون هذا الكلام رأى سبل المجد والعلاء مفتوحة امامهُ وخال انهُ قبض على ناصية العز لكنهُ عاد فتذكر وعدهُ لابيهِ ولباولين فتناول يد عمروٍ وقبَّلها قائلاً لا يغضب مولاي اذا اصررت على التمسك بديني ودين آبائي واجدادي فقد قطعت عهدًا ان لا اجحدهُ . فسكت عمرو ثم اطلعهُ اوريون على ما ينويهِ من السفر وقال اتيتك مستاذنًا ومودعًا فبدا الكدر في وجه عمروٍ وقال

— ليتك تبقى فان لديَّ عملاً جزيل النفع يعود بالفائدة والخير على اهل هذه البلاد وقد اتاني كتاب عن الخليفة يشكو قلة الخراج ويقول انهُ لم يولّني مصر ليجعلها طعمة لي ويشهد الله انني لم آخذ لنفسي دينارًا واحدًا من الخراج وعندي مئة وخمسون الفًا من الفعلة يعملون في اصلاح الترع والمجاري التي اتلفها الروم فانا ازرع ليحصد الخلف وعليهِ فقد عقدت النية على العودة الى المدينة لا برئ نفسي ولاستأذن الخليفة في اتمام هذه الاعمال على الوجه الذي تقتضيهِ مصلحتنا ومصلحة البلاد وقد سمعتك تفاخر بحب وطنك فهلاَّ تزال على حبك

— نعم ولن ازال كذلك

— اذًا ففي طاقتك ان تخدم بلادك خدمة جليلة وليس ما انتدبك اليهِ بالامر السهل فقد رأيت ان احوّر تقسيم البلاد وان اعهد اليك بذلك فتستعين على القيام بهِ بمعرفتك البلد واهلهُ مستندًا الى ما في خزائنك من الصكوك والمحفوظات واذا تبين لك ان في النظام المتبع عيبًا يستحيل اصلاحهُ فاقلبهُ ظهرًا لبطن ووجّه همك الى تعديل الضرائب في الاقاليم المختلفة فان الاجحاف فيها يبدو لنا كل يوم واعلم ان غيرك يحاول نفس الامر والفوز لمن يضع الخطة المثلى فاذا صدق ظني فيك فانت ابن بجدتها فلامرٍ ما تريد الانفصال عن منف

— ان ما يدفعني الى ذلك يا مولاي عمل لا ربح لي فيهِ ولا فائدة لي منهُ ولكنهُ وعد صدر مني ولولاهُ لاطعت اشارتك من ساعتي فان عهدك اليّ بحلّ هذه المعضلة اكبر ثناء عليّ فاذا اذنت شرعت في العمل يوم اعود

ليكن كذلك فابذل جهدك فحلبة السباق متسعة واحذر الاثنين البطريرك وعبادة فليس عندي من يقوم مقام عبادة سوى القاضي عثمان وهو ليس بمقاتل وليكلأك المهيمن برحمتهِ

وفي صباح الغد دعا اوريون نيلُس اليهِ وانفرد بهِ في الخزينة ليطلعهُ على امر سفرهِ ورآهما انوبيس اخو كاترينا فعلم ان انفرادهما لامر جلل فحدثتهُ نفسهُ باستراق السمع عملاً باشارة كاترينا فصعد على السطح واكبَّ على فتحة فيهِ فلما سمع ما شاء سماعهُ من الحديث اسرع لينزل واذ خشي ان يراهُ احد الكتبة ابتعد عن السلم وامسك باحد الميازيب يريد النزول عليهِ

فانكسر الميزاب وسقط الى الحضيض فترضضت عظامهُ فصاح صيحة دوت لها جوانب المكان فهرع اليهِ الاعوان والخدم فرفعوهُ من مكانهِ . اما نيلُس فلما وقف على غرض سيدهِ طار رشدهُ فاخذ يتوسل اليهِ ويستحلفهُ ان لا يغرّر بنفسهِ وافاض في وصف المخاطر التي تعترضهُ فاقتنع اوريون بصحة ارائهِ لكنهُ لم يحد عن عزمهِ وقال لقد وعدت روفينس ولا اطيق ان ارى هذا الشيخ يسير الى الموت وحدهُ

فقال نيلس ولكنَّ في منف يونانياً آخر وهو ملامبوس صانع السفن ولهُ ابنان كلاهما باسل شجاع وهذا الرجل غيور على دينهِ وابناءِ ملتهِ ولا اراهُ يأبى اسعاف روفينس فاذا فعل وساعدهُ ابناهُ افادا روفينس اكثر منك

— اذاً سأطلب معونتهما لكنني لا اخلف وعدي . ثم ركب ونيلس قارباً وسارا الى ملامبوس فاطلعاهُ على امر الفرار وطلبا اليهِ ان يسعفهما فاجابهما الى ذلك بطيبة خاطر ودعا ابنيهِ فاخبرهما الخبر ثم ذهب اوريون الى بيت روفينس وسأل عن باولين فقيل لهُ انها ذهبت الى الدير لتخبر الرئيسة بما تمَّ من امر المعدَّات حتى تكون الراهبات على اهبة السفر فجلس ينتظر عودها فابطأَت حتى عيل صبرهُ وحسب انها لا تعود وفيما هو كذلك جاءَتهُ هيلانة فاخبرتهُ ان باولين رجعت من الدير ففرح بعودها وبقي في مكانهِ حاسباً انها تأتي اليهِ وانقضى نصف ساعة دون ان تجيء فاخذ الغيظ منهُ كل مأخذ وشق عليهِ ان لا تحفل بهِ الى هذا الحدّ وحينئذٍ اتت هيلانة فقالت باولين تدعوك اليها في البستان

ولما ذهبت باولين الى الدير اطلعت الرئيسة على ما تلقتهُ من الاخبار فلما اعلن ذلك للراهبات ذعرن واخذت كل واحدة منهنَّ تأتي بذخائرها حتى ضاقت الغرفة بها فامرتهنَّ الرئيسة باعادتها جميعاً وقالت ان السفينة لا تسع هذه الامتعة فهي تزيد في ثقلها وتعيق سيرها ثم عدَّدت لهنَّ ما يستطعنَ اخذهُ فتفرقن في غرفهنَّ وحينئذٍ خلت الرئيسة بباولين لتلقي عليها شيئاً من النصائح قبل فراقها فاندفعت هذه تحدثها بحديث حبها وتطنب في وصف حبيبها الى آخر ما يقولهُ المحبون اذا اتسع لهم مجال الكلام فلما فرغت سألتها الرئيسة قائلة

— ألا يدفعكِ هذا الحبّ الى ترك العالم باسرهِ واتباع من تهوين فاشارت باولين بالايجاب

— اذاً فتحذيري اياكِ سيذهب سدًى لكنَّ حبيبكِ ليس من ابناء مذهبنا

— على انهُ يحترمهُ يدلك على ذلك مجازفتهُ بحياتهِ لا نقاذ كنَّ

— انما يفعل ذاك ارضاءً لحبيبتهِ وان زواج ابنة توما بيعقوبي يسوءُني وانا عالمة انكِ لا تنبذينهُ ولكنَّ الله يتخذ الحبّ الصادق وسيلة لاتمام مشيئتهِ على طرق شتى قد تبدو لعين الناظر

مملوءة بالمعاثر. فسرَّت باولين لهذا الكلام وكادت تقع على عنق الرئيسة وتقبلها امَّا هذه فلم تمهلها ريثما تفرح بما سمعتهُ فقالت

— ولكن حبيبكِ يشتهي ان يتمتع بنعمة الله وهو مندفع بكليتهِ الى ملذات هذا العالم فلا تزال طبيعتهُ كما كانت ولا يزال يرى في غرور هذه الدنيا منتهى السعادة فالحبّ الزمني يدفعهُ الى طلب الاغراض النبيلة لكنهُ غير مأمون العثار فاذا سقط لم يستطع النهوض لأَن حبّ الله ليس في قلبهِ فاذا رأَيتِ ان تصغي الى صوت حبكِ فتقبليهِ زوجاً لكِ فتمهلي زماناً ريثما يبرهن لكِ عن صدق طويتهِ وحسن توبتهِ

— لكنهُ تاب منذ زمن

— وما دليلك على ان توبتهُ خالصة فهو لا يزال يبتغي السعادة الزمنية ولما كنت اعتبركِ ابنة لي فانا انصحك كما تنصح الام ابنتها فتجلدي وثابري على مراقبتهِ ولا تسلمي لهُ بمقدار ذرةٍ حتى

— حتى متى . اهذا هو الحب الصحيح فقد عهدت الحبّ يقضي على المرء بمقاسمة حبيبهِ افراح الحياة واتراحها

— صحيح ولكن الصبر من واجبات المحبين ايضاً فتذرعي بهِ ولا ترتبطي برباط الزواج الذي لا يفكُّ حتى تري اوريون كما ينبغي ان يكون وساعديهِ على نهج السبيل القويم دون ان تتسرعي في قبولهِ . فالحمت باولين ولم تحر جواباً وظلَّت الرئيسة تخاطبها حتى وعدتها بانها لا تبتُّ امراً الى ان يعود اوريون من دمياط وبيدهِ كتاب منها تضمنهُ ما ترتإيهِ بشأنهِ وكانت تتكلم والدموع تهطل على خديها لان قلبها ابى التسليم بما لم يستطع عقلها دفعهُ فلما عادت الى البيت وقابلت اوريون كما تقدم قالت

— عفواً ولا يغظك ابطائي عنك فقد اصابني الم شديد في رأْسي بعد ان فارقت من كانت لي بمثابة امي

— ابيتِ لقائي امس وسمعتِ روفينس اليوم يدعوني الى الفطور ولست اريد خطابك بلفظ الآمر فهذا ابعد الامور عن قلبي واعلم انكِ لا تطيقينهُ ولكننا سنفترق يا باولين عن قريب فلماذا اضعتِ الوقت الثمين فاختصصتِ صديقتك بساعتين ولم تبقي لحبيبكِ شيئاً

— اما امس فلم استطع ان ادفع ماري عني وقد كانت تبكي وتقصُّ عليَّ حديثها بقلب مفعم سروراً وعينين دامعتين لئلاَّ تحسب ذلك قساوة مني فلما نزلت ورأَيت رقعتك بدلاً منك حزنت جدًّا وندمت على ابطائي

— اضطررت الى الذهاب الى الفسطاط لالقى عمراً ولا يخفى عليكِ انني اصبحت مقيداً

بواجبات كثيرة ولم يعد قيادي في يدي فقد قضيت ساعة الفطور كمن يتقلب على شوك امَّا وقد حان وقت الفراق فهنالك امر احب الوقوف عليهِ واود لو تخبريني ما . . . فقالت ما اذا كنت احبك نعم وساحبك الى الابد تعال معي نجلس في ظل تلك الجميزة فهناك مقعد من الخشب. فشخص اليها واعتراهُ الذهول لكنهُ لم يرَ بدًّا من الانقياد اليها فتبعها حتى اذا ما جلسا قال

— أهذا جوابكِ لصوت الحبّ المنبعث من اعماق فؤادي اكذا تعامل الخطيبة خطيبها ليلة يفترقان . فبدا الاضطراب والجزع في وجهها وقالت

— الم اعرب لك عن حبي او خفي على عينيك فاعلم ان قلبي لك وانت مقيم فيهِ فلا يهمني سواك ولا احيا الاَّ لك ولن احب غيرك ولا اصلِّي الاَّ لاجلك ولكني لست خطيبتك بعد ولا استطيع ان اكون كذلك اليوم

— وعلامَ لا تستطيعنهُ اذا صحّ انك تحبينني حقًّا وما الذي يدفعك الى تعذيبي

— الفطنة والحذر يقضيان بذلك فلم يحن الزمان بعد ويلوح لي انك لا تستطيع ان تضع شكيمة لعواطفك فقد نسيت الماضي وغابت عنك ذكرى تلك الهوَّة العميقة التي كانت تفصلنا فالعناية حوَّلت البغضاء التي كانت تجيش في صدري الى محبة اشد منها لكني لا استطيع ان اكون خطيبتك بعدُ . ان هذا القول يكلفني عناءً شديدًا وسيكلفني حزنًا ودموعًا غزيرة على انني اعرف شيئًا واحدًا واردد قولاً واحدًا وهو ان قلبي لك وحدك ولن اصير عروسك حتى استطيع ان اقول لك بملء الثقة لقد فزت فخذني وحينئذٍ يتضح لك ان حبي لك لا يقل عن حبك لي وارباهُ تفهَّم ما اقول يا اوريون ان وجع رأسي يكاد يقتلني . قالت ذلك والقت رأسها على كفها وتنهدت من كبد حرَّى . فاجاب اوريون وقد خنقهُ الغيظ

— ان كلامك هذا لم يصدر عن قلبك ولكنهُ تلقين من تلك الراهبة

— انهُ صوت العقل وكانت عواطفي قد تغلبت على عقلي فانارت صديقتي بصيرتي

— لعن التي نصحتكِ هذه النصيحة فهي لا تعرفني ولم تسمع كلمة من فمي ولو علمت تلك الزاهدة بما في فؤادي لقالت غير ما قالت ومهما يكن من ذنوبي وشري فانا رجل لا انسى اللطف والمعروف ولو اقترنت بكِ يا باولين لتم لي ما اتمناهُ وسرت في السبيل الذي اقتدتني اليهِ فبلغت اوج المجد والكمال اما الآن فلم يبقَ لي من عمل سوى السعي لاكسب حبك بافعالي فاقدمها على مذبح حبك حتى تدبَّ حرارة ذلك الحب في قلبكِ فما قولكِ في رجل يفعل ذلك امام عيني حبيبتهِ فهذه اهانة لا تطيقها نفسي وتأبى همتي ان اجري على هذه القاعدة فاذا كانت دعواكِ في حبي صحيحة فتنازلي عن مطالبكِ هذه . فقبضت باولين على يدهِ وقالت

— انها صحيحة فانا احبك من كل قلبي وقد تكون مصيباً فيا لله ما العمل فامهلني في الجواب ألا ترى اضطرابي وما اقاسيهِ . فنظر الى وجهها الشاحب وجبينها المقطب فاخذتهُ الشفقة وقال

— نعم اراهُ فارجئي الجواب الى هذا المساء واذهبي الآن فاستريحي

— وانت في سفرك قل للرئيسة عين ما قلتهُ لي فهي امرأة فاضلة فاذا سمعت كلامك وعرفت صفاتك قدرتك حق قدرك واحبتك فتحلني من وعدي

— اي وعد

— وعدتها انني لا اتزوجك حتى . . . . فقاطعها وقال مغضباً

— حتى يتمَّ الامتحان فاذهبي واستريحي الآن فقد عكَّرت صديقتك صفاء ساعة كنت احسبها احلى ساعات حياتنا وخير لنا ان نقف عند هذا الحدّ من البحث فلا نتجاوزهُ الى ما لا تحمد عقباهُ فاذهبي ونامي فيخف بعض ما بكِ من الالم فاني ناسٍ ما قلتِ وليتكِ ترين ما في صدري فالوداع الى يوم اللقاء . قال ذلك ودار فمشى في سبيلهِ فصاحت باولين والبكاء يقطع كلامها اذ كرحبي لك ياوريون ولا تنسهُ اما هو فلم يسمعها بل اسرع في مشيهِ وخرج من البستان

داء السرطان

واحدثُ الابحاثِ عن اسبابهِ

في مثل هذه الايام من العام الماضي صدرت مجلات الطب الامركانية والانكليزية كلها مشحونةً بالمقالات الطويلة عن الابحاث البكتيريولوجية التي قام بها مَعْمَلُ (او مُخْتَبَر) ولاية نيويورك البكتيريولوجي عن يد الدكتور جيلورد والدكتور پارك الجراح الامركاني المشهور اللذين قالا يومئذٍ بوجود حليماتٍ في الاورام السرطانية هي سببُ العلَّة على زعمهما . وذاع قولهما هذا في كل اقطار المسكونة حتى ان الشركات التلغرافية عَنيَت بنقلهِ الى كل انحاء المعمور لِمَا رأتْ من ارتياح الناس الى الاطلاع على سبب السرطان واكتشاف ذلك السبب ضالتهم المنشودة

ولكن الاطباء والعلماء المدققين علموا منذ ذلك الحين ان اكتشافاً هامًّا كهذا يجب ألاَّ يحلّ محل الاعتبار والتصديق إلاَّ بعد التمحيص والتدقيق . ولذلك وقف العالم الطبي والعلمي ناظراً بملء الرغبة والتشوُّق الى اللجنة التي عينتها جامعة هارڤرد الشهيرة لتبحث عن هذا "الرأي الحلمي" حتى صدر تقرير تلك اللجنة في شهر مايو الماضي واذا بهِ تفنيد للرأي الحلمي بحججٍ دامغةٍ لا تقبل الرد والاعتراض تعود كلها الى ثلاثة براهين

(١) ان الحَلَميّات التي قيل عنها انها هي سبب السرطان الاصلي اذا لُقّح بها كبد الارنب مثلاً احدثت فيهِ أوراماً بسيطة اعراضها كاعراض سائر الالتهابات المزمنة البسيطة لاغير

(٢) ان هذه الاورام او الخراجات التي تتولد من ادخال هذه الحلميّات الى جسد الحيوان يختلف بناؤُها اختلافاً كليًّا عند بناء الاورام السرطانية

(٣) ان طبائع هذه الحَلَميّات او مميزاتها البكتيريولوجية هي ذات المميزات التي ذكرها علماء البكتيرلوجيا سابقاً لحَلَميّاتٍ اذاعوا انها هي اصل العلة ولكنهم بعد التجارب والامتحانات المتوالية لم يقدروا على تأييد دعواهم. ولذلك لم نعد نسمع عنها شيئاً مطلقاً . فرجع الاطباء بهذا التفنيد الى سابق عهدهم من حيث جهلهم سبب السرطان الاصلي وبالنتيجة عدم وصولهم الى علاجٍ خاصٍ لهُ يكفل الشفاء التام منهُ

ولا بدع اذا رأينا علماء الارض واطباءها قاطبةً يبذلون كل مرتخصٍ وغالٍ في سبيل الابحاث الدقيقة عن سبب السرطان تلك العلة الخبيثة التي اذا اصابت الانسان اوردتهُ حتفهُ بعد آلام مبرحة والاطباء حيارى في امرها يلتفتون اليها والى ضحاياها العديدين وهم مغلولو الايدي لا يدرون ماذا يفعلون

ومن مطالعاتي الاخيرة عن هذا الداء الوبيل وجدتُ ان اشتغال العلماء بهِ لا يقل عن اشتغالهم بالسل (التدرن الرئوي) العدو الالد لبني آدم . ولكن العالم قد خطا خطوة كبرى في سبيل ما يعرف عن السل اي عن سببهِ وعلاجهِ والوقاية منهُ بعد اكتشاف باشلس كوخ السبب الاولي لهُ . لاننا بمعرفة السبب يسهل علينا البحث عن الوسائل الآئلة الى استئصال شأفة العلة او على الاقل الوقاية منها

قامت جمعيةٌ علميةٌ بفرنسا منذ عهدٍ قريب وعرضت مبلغاً كبيرًا من المال جائزة لمن يكتشف دواء شافياً لداء السرطان . وقد اطلع على هذا الخبر علماء الارض واطباؤُها ولكنهم كانوا يقرأُون ويصمتون لانهم لا يعرفون السبب الاصلي لهذه العلة فكيف يمكنهم ان يعرفوا كيفية معالجتها بطريقة علميَّة ؟

وارسل جلالة الملك ادوارد السابع رسالة برقية في العام الماضي الى اعضاء مؤتمر السل المنعقد حينئذٍ في لندن وقال فيها : — " وهناك داء آخر عجز عنهُ العلماء والاطباء حتى الآن وهو السرطان قدَّركم الله على اكتشاف دواء لهُ بعد عهدٍ غير بعيد والذي يكتشف هذا الدواء يستحق ان يقام لهُ تمثالٌ في كل العواصم " . (١) وسمع هذا الكلام اعضاء ذلك المؤتمر وهم نخبة

(١) انظر مقتطف ٣٦ : ٨٥٧

علماء الارض . وظار بسرعة البرق الى كل اقطار العالم كيف لا وهو من كلام ملكٍ يملك اعظم الممالك ولكننا للآن لم نسمع عن طبيب حاوَل اكتشاف دواء لهذا الداء ذلك لان البحث عن السبب اولى والوصول الى معرفتهِ اول خطوةٍ يجب ان نخطوها حتى نتمكن من الوصول الى علاجٍ خصوصيٍ لهُ

وليس البحث عن اسباب السرطان حديث العهد بل يمتدُّ الى اول اكتشاف علم البكتيريولوجيا واستخدام المكرسكوب في تشخيص الامراض نظرًا لاهمية السرطان وكثرة فتكهِ بعباد الله وخصوصاً في مركز العلم والتمدن في اوروبا واميركا . فقد قيل ان معدل الوفيات بهِ في بلاد الانكليز لا يقل عن معدلها بالسل . ومن المعلوم ان اكثر علماء البكتيريولوجيا مثل فيفر وغيون وهانو وكابس وسن وغيرهم كثيرٌ من العلماء والاطباء والوا البحث سنوات عديدة للوصول الى سبب السرطان ولم يفلحوا لسوء حظ الانسان وكانت تجارب هؤلاء العلماء احياناً في الحيوانات كالارانب والخنازير الهندية واحياناً اخرى في الانسان نفسهِ وكلها لم تأتِ بنتيجةٍ مرضية

نعم اننا نعلم الآن ان من الاسباب المهيئة الاستعداد الوراثي وهذا مما لا شك فيهِ اليوم وكبر السن وهذا مرجحٌ بدليل ان الاصابة بالسرطان تندر ان تكون في من هم تحت الخامسة والعشرين وكثرة التعرُّض للآفات الميكانيكية وخصوصاً في مَن بهم استعدادٌ وراثيٌّ لذلك . والاكثار من اكل اللحوم المملحة . والسكنى على ضفاف الانهر الكبيرة الى غير ذلك من المعدَّات للمرض . ولكن علمنا بها لا يكفي كما ان علمنا بالاستعداد الوراثي للسل لا يكون سبباً حاتماً على المرء بالاصابة بهِ بل كثيرًا ما ينجو منهُ المستعدون لهُ اذا استخدموا الوسائط الكافية التي تقي من باشلس كوخ وبذلك تحفظ من العلة والخطر. وهذا يأتي بنا الى البحث عن هذه المسئلة وهي :—

هل السرطان معدٍ

يعتقد العامَّة ان السرطان علة معدية ولذلك تراهم في انكلترا يطلبون من الحكومة احياناً ان تأمر بعزل المصابين بهِ خوفاً من ان ينتقل الى الاصحاء وهذا الاعتقاد مبنيٌّ اكثرهُ على كلام الاطباء قبل اكتشاف علم البكتيريولوجيا فانهم كانوا يعتقدون بعدوى السرطان ويعلّمون الناس بذلك حتى اواسط القرن الماضي

اما الاكتشافات الحديثة فقد برهنت جليًّا ان السرطان لا ينتقل بالعدوى ولو كان ينتقل بالوراثة حتى الى الاحفاد . ولذلك وجب على اهل المصاب واصدقائهِ ان لا يحجموا عن قضاء واجباتهم نحوهُ خوفاً من العدوى . فقد جمع الدكتور ديماركي تاريخ ١٣٤ حادثةً بها لقح الجراحون انفسهم بخلايا الاورام السرطانية ولم يصبهم ادنى عرَضٍ من اعراض هذا

الداء . واحدث تجربةٍ وقفت عليها من هذا القبيل اجراها الدكتور سن Senn الجراح الامركاني الشهير وقد قال عن نفسهِ ما ملخصهُ : — "في ٤ مايو سنة ١٩٠١ لقحت نفسي بخلايا سرطانية اخذناها من غددٍ لمفاويةٍ مصابةٍ بالسرطان في رجل ارلاندي عمرهُ ٦٠ سنة . وتأكدنا تشخيص العلة بهِ بالفحص المكرسكوبي ..... ومضى الاسبوع الاول ولم اشعر بشيء مطلقاً مكان التلقيح وفي الاسبوع الثاني شعرت بظهور نتوءٍ مثل دملة صغير في محل الجرح دام اسبوعين ثم اخذ في الزوال رويداً رويداً حتى انني لم ارَ منهُ شيئاً في آخر الاسبوع الخامس"

والدكتور كلبس Klebs جرَّب هذه التجربة عينها في عنقهِ وفي كثيرين من مساعديهِ اربعين مرةً وكانت النتائج سلبيةً فيها كلها . وعلى هذا بنى قولهُ المعروف وهو : — "مادمنا لا نقدر الآن ان نلقّح السليم بخلايا سرطان المصاب او بالحلميات الموجودة فيهِ ونولد فيهِ المرض عينهُ بكل اعراضهِ فكل ابحاثنا الهستولوجية البكتيريولوجية المقصود منها معرفة سبب السرطان الاصلي هي في خطةٍ غير الخطة التي يجب ان نسير فيها للوصول الى هذه الغاية اعني معرفة السبب" . وهذا ايضاً يأتي بنا الى امر آخر لهُ علاقة بمعرفة السبب وهو

هل السرطان آخذٌ في الازدياد

من المشهور عند كل العامَّة وقسم كبير من الاطباء ايضاً ان السرطان آخذٌ في الازدياد الى درجةٍ اوجبت خوفهم الشديد منهُ وقد راع هذا القول الناس ولاسيما في انكلترا واميركا . ولكنهُ كقولهم ان السرطان معدٍ لم يقم دليلٌ علميٌّ على صحتهِ للآن . بل المرجح اليوم عند طائفة كبيرة من الاطباء ان عدد المصابين بالسرطان لم يزد عما كان عليهِ قبلاً . لكن معرفتنا بهِ وبطرق تشخيصهِ زادت كثيراً عن الماضي وخصوصاً بعد استخدام المكرسكوب والفحص الرسمي في التشخيص

فاذا كان السرطان لا يعدي ولا هو آخذ في الازدياد حال كوننا نجهل طرق مقاومتهِ فيكون "الرأي الحلمي" ضعيفاً لا نقدر ان نعمل بهِ في الوقت الحاضر

علاقة السبب بالعلاج

لا شك ان الغاية التي يتوخاها الطبيب هي مساعدة الطبيعة على شفاء الامراض او تخفيف آلامها . ولذلك قلما ترى العامة وقسماً ليس بقليل من الاطباء يهمهم البحث عن اسباب العلل الرئيسية او كيفية تشخيصها . بل جلُّ ما يهمهم هو كيفية علاجها او استخدام الوسائط للوقاية منها

ولكن الاطباء قلما يقدرون في الوقت الحاضر ان يجاروا الناس على افكارهم وخصوصاً في المسائل المتعلقة بشفاء اكثر الامراض الخبيثة كالسرطان والسل وكثير غيرهما . ولكنهم يأملون بالفوز العاجل على هذه الاعداء الشديدة الوطأة على الجنس البشري نظراً لتقدم علم البكتيريولوجيا

في هذه الايام . وذلك سيكفل لنا ولو بعد حين كشف الجراثيم التي هي السبب الاصلي لهذه العِلل . وعندئذٍ يسهل علي الاطباء محاربة عدوٍّ محسوسٍ عرفوا طباعهُ ومميزاتهِ وتحققوا ما يضعفهُ او ما يميتهُ

وهذا يُظهر لك السبب في عدم نجاح الاطباء اليوم في معالجتهم السرطان اعني عدم تحققهم ماهية الجراثيم الحية التي هي اصل العلة

نعم اننا نستخدم الآن بعض العقارات الطبية كالزرنيخ والكوندورانغو والشلدونيوم (وهو ما سماهُ المقتطف نبات اليتوع . انظر مقتطف ٢١ : ٧٣) والتربنتين وما اشبه . ولكنها كلها لم تأتِ بفائدة تذكر . وقد استخدم بعضهم كيَّ التورم السرطاني نفسهِ امَّا بالحديد المحمى بالنار وامَّا بنترات الفضة كما انهم استعملوا حقن السرطان بالفورمالين او المثيل الازرق — وذلك كلهُ لم ينجِ المصاب من مخالب الموت ولو خفَّف ويلات المرض نوعًا

ولمَّا سرى القول بان سبب السرطان بعض الحلميَّات حاول الدكتور كولي Coley النيويوركي استعمال مصلٍّ لشفاء هذه العلة بطريقةٍ تشبه طريقة رو في مصل الدفثيريا (الخانوق) . ولكنهُ لم يفلح طبعًا . لان سبب العلة لم يتحقق بعد وسبب الدفثيريا صار امرًا محققًا لدى الجميع

والمعوَّل عليهِ اليوم هو استخدام الجراحة لشفاء السرطان . اي استئصال التورم باصولهِ وخصوصًا في بادىء الامر فذلك يطيل حياة العليل ويحبب الحياة لديهِ ولو كان العضو المنزوع معدتهُ كما بيَّنا ذلك في العام الماضي وتقاريرُ كل الجراحين والاطباء تدلنا على ان السرطان لا يرجع الى صاحبهِ بعد استئصالهِ من اول الامر بكل اصولهِ الاَّ بعد ٣ سنوات الى عشر . وانهُ من الممكن ان تختفي العلة بالكلية في بعض الحوادث بعد العمليات الجراحية

ومع ان سكين الجراح اتت بفوائد جمة في ما يتعلق بعلاج السرطان لا تعدُّ العلاج الخصوصي لهُ . ولا علاج معروف لهُ حتى اليوم لاننا لا نعلم سبب العلة وماهيتها كما قدمنا

وعلى ما رأيت من اخبار الولايات المتحدة علمت بان معمل ولاية نيويورك البكتيريولوجي لا يزالُ آخذًا في البحث عن سبب السرطان ولو كان قد اعترف بفساد الرأي الحلمي . وان مدرسة الجراحين من جامعة هاڤرد في بوسطن اخذت في البحث بطريقةٍ جديدة عن السبب نفسهِ ايضًا . وما علينا الآن سوى الصبر والتعلل بالآمال لنرى ما تأتينا بهِ لنا الولايات المتحدة بلاد العجائب والغرائب

الدكتور

سعيد ابو جمره

سان باولو بالبرازيل

باي تونس وحاضرتهُ

سحت منذ نحو سنتين في بلاد الجزائر وتونس مبتدئاً من وهران ومنها توجهت الى تلمسان بالقرب من حدود مراكش فعاصمة الجزائر فبلاد بليدا فقسطنطينة فعنَّابة او بون كما يسميها الفرنسويون ثم تركت الجزائر وذهبت الى عاصمة تونس حيث تشرفت بمقابلة سمو محمد الهادي باي صاحب المملكة التونسية الذي جلس الآن على عرش البيت العلوي الحسيني وكان حينئذٍ وليّ العهد وهو الباي الثالث عشر من سلالة حسين بك علي تركي مؤسس البيت الحسيني فاني حينما بلغت تونس ذهبت لمقابلة سموهِ في قصرهِ الذي بناهُ في درمش بضواحي تونس فقابلني مرحباً وكنت قد تشرفت بمقابلة سموهِ اول مرة في مدينة فيشي من اعمال فرنسا . وهو على جانب عظيم من الانس والدعة مع ذكاء عقل ونباهة قدر يدلان على انهُ اهل للقيام بالمهام العظيمة التي عُهدت اليهِ خبير بالاحكام والشؤُون المالية والفنون العسكرية اتم دروسهُ في احسن مدارس فرنسا ثم عاد الى وطنهِ يشارك المرحوم والدهُ في ادارة مهام البلاد وهو الآن سهران على مصالح امتهِ وتقدُّمها ونجاحها وهيئتهُ تملأُ العين مهابة فهو طويل القامة اسمر اللون ذو عينين سوداوين براقتين يعلوهما حاجبان اسودان عريضان . وجبهتهُ عريضة ويداهُ كبيرتان يمسك باحداها سبحة اما لباسهُ فاللباس الافرنجي وعلى رأسهِ طربوش مغربي

وعاصمة تونس واقعة في طول ٨° شرقاً وعرض ٤٤َ ٣٦° شمالاً فهواؤُها كهواء بيروت حارٌّ في الصيف ولكنهُ جيدٌ جداً وسكانها الوطنيون من المسلمين واليهود وغير الوطنيين من طوائف مختلفة . امَّا الوطنيون فالمسلمون منهم سبعون الفاً واليهود اربعون الفاً وغير الوطنيين احد عشر الفاً من الايطاليين وعشرة آلاف من الفرنسويين والجزائريين وتسعة آلاف من اهالي مالطة والجملة ١٤٠ الفاً وقد كثر الايطاليون فيها والمالطية لقربها من بلادها

والى شرق تونس وشمالها بحيرة طولها ستة اميال وعرضها ثمانية اميال ومساحتها ١٨٠٠٠ كيلو متر ومتوسط عمقها متران وكانت ارضها يابسةً تزرع فتغلَّب البحر عليها فصارت بحيرة وكانت البواخر تفرغ شحنها في صنادل تسير فيها الى الجمرك على ما في ذلك من النفقة والمشقة فتألفت شركة حفرت ترعة في البحيرة طولها تسعة كيلو مترات تمخر البواخر فيها وترسو في ميناء أُنشئ لهذه الغاية وتفرغ شحنها في الجمرك مباشرةً

وكان منظر المدينة قبلاً كمنظر مدينة مصر قبل انشاء احياء الازبكية والتوفيقية والاسماعيلية فاصبحت اليوم من المدن الجميلة بشوارعها ومنتزهاتها وكان امام بابها اراضٍ سبخة

محمد الهادي باي تونس

فردمت وخططت فيها الشوارع وهي الآن حي الافرنج وأُطلق على شوارعها اسماء الممالك الاوربية كشارع روسيا وشارع النمسا وشارع اسبانيا ويقال للشارع نجع وفتح في وسط هذا الحي شارع يبتدئ من باب المدينة وينتهي الى البحر طولهُ ٥٠٠٠ متر وعرضهُ ٦٠ مترًا وغرست على جانبيهِ الاشجار واقيمت الفنادق والمخازن الكبيرة والقهاوي فكأنهُ شارع من شوارع مرسيليا . وللمدينة باب كبير فاصل بينها وبين حيّ الافرنج ومنهُ دخلتها فوجدت شوارعها ضيقة الاَّ انها مبلطة بالحصى ونظيفة والدكاكين صغيرة لكنها مملوءة بالبضائع وتسمى الاسواق باسماء ما يباع فيها . والسوق العمومية مبنية على شكل سوق استانبول وبالقرب منها جامع الزيتونة المشهور بمدرستهِ وظللت سائرًا الى ان وصلت الى القلعة ويقال للقلعة هناك قصبة وهي قديمة العهد بناها الاسبان واحتلها الاتراك وغيَّر الفرنسويون هيئتها القديمة وفيها حاميتهم ولما فتحها الاسبانيون سنة ١٥٣٥ وجدوا فيها عشرين الف اسير ممن اسرهم القرصان وهم الذين فتحوا بابها للاسبان

ولما كانت شوارع المدينة ضيقة لا يمكن سير المركبات فيها مدوا خط تراموايِ خيل حول المدينة يبتدئ من الباب المذكور آنفًا و يسير الى جهة اليمين حتى يصل الى امام القلعة ثم يتجه شمالاً حتى يعود الى الباب . فتستغرق هذه الدورة نصف ساعة يرى الراكب فيها هيئة المدينة وفي اثناء مرور الترامواي ينزل الركاب ويدخلونها منهُ

ومما يستحقُّ الرؤية في تونس الباردو او قصر البايات القديم الى جانبهِ قصور اخرى وثكنة للجند والمحكمة والسجن وحول الجميع سور كبير. وكان الباي ينتقل كلَّ يومٍ من قصرهِ الخاصّ الى قصر المحكمة او الديوان فيعقد جلسة مع وزرائهِ ومستشاريهِ للنظر في ادارة امور البلاد . ولكن بعد الحماية الفرنسوية ترك علي باي هذا المكان وبنى لهُ قصرًا على شاطئ البحر . وقصر الباردو هذا لا شيء عليهِ من فخامة البناء ولكنهُ واسع جدًّا كثير الفسحات والدهاليز لما وصلت الى بابهِ صعدت على درج من رخام على جانبيهِ ثمانية اسود من الرخام الابيض حتى انتهينا الى فسحة مبلطة بالرخام الابيض حولها رواق قائم على اعمدة من رخام وعليهِ نقوش عربية لطيفة وآيات قرآنيَّة وتحت الرواق قاعات اشبه بقاعات سراي شبرا بمصر ثم دخلنا قاعة الاستقبال وفيها يقابل الباي وفود المهنئين في المواسم والاعياد وهي واسعة جدًّا وفي صدرها العرش وهو مذهب وفي اعلاهُ شعار الحكومة التونسية وجدران القاعة مزينة بصور الملوك وبايات تونس بالقد الطبيعي وبين كل صورتين مرآة كبيرة . ومنها صورة محمد باي وحسين باي واحمد باي وصادق باي وهو الذي وقَّع المعاهدة مع حكومة فرنسا سنة ١٨٨١ وصورة علي باي الذي توفي حديثًا وصورة نابوليون الثالث وامبراطور النمسا. ولكن اثمن هذه الصور صورة الملك لويس فيليب

رسمت على قماش دوبلين وكانت تساوي نصف مليون فرنك حينما صنعت ولا يعمل الآن مثلها باقل من نصف هذه القيمة

وتوجهنا من هناك لمشاهدة المكان الذي كانت زوجات محمد باي الاربع يقمن فيهِ وهو كثير الزخرفة والنقوش فيهِ فسحة كبيرة مبلَّطة بالرخام الابيض في كل زاوية منها غرفة للمنامة تشبه غرف المنازل الشهيرة في دمشق ويليها قاعة كبيرة لها قبة كقبب الجوامع تتألق من داخلها لكثرة ما فيها من النقوش المذهبة . وهذه القاعة والغرف والفسحة جعلت الآن متحفاً لما وجد في تونس من العاديات والتماثيل القديمة وهي كثيرة وبينها تمثال اورفه من الصوان وهي واقفة تعزف بالقيثارة وامامها وحوش الارض كالاسد والنمر والدب تسمع صوتها وعليها ملامح الطرب

وضواحي تونس كثيرة جميلة وقد تكفلت شركة ايطالية بمد سكة حديد بينها وبين العاصمة يبلغ طولها ٢٠ كيلو متراً وبعد ان مدّت غار الفرنسويون فاشتروها منها بمبلغ كبير. وهاك بيان هذه الضواحي

(حلق الواد) او غوليتّا وهو اسم قرطجني والفرنسويون يقولون لاغوليت . لما ركبت قطار سكة الحديد اليهِ كانت بحيرة تونس الى اليمين. والى الشمال اراضٍ منبسطة مزروعة قمحاً وشعيراً وزيتوناً وكانت حلق الواد الميناء القديم لتونس ولكنها انحطت بعد فتح الترعة في البحيرة . وعدد سكانها الآن ٦٠٠٠ نفس

(خير الدين) نسبة الى خير الدين باشا الذي كان وزيراً لتونس وصدراً اعظم للدولة العلية بنى لهُ فيها قصراً على شاطئ البحر تحوّل الآن الى فندق وتياترو وحمامات بحرية يؤمهُ خلق كثير للتنزه نهاراً وليلاً

(قرطاجنة) ذهبنا اليها ومعنا الدليل فشاهدنا حدود عاصمة الفينيقيين من جهاتها الاربع واراضيها تزرع الآن قمحاً وشعيراً بعد ان كانت من اكبر العواصم وامنعها حتى كادت رومية تعجز عنها وتفرجنا على الفورم والصهاريج الرومانية والمتحف الكبير الذي بناهُ الكردينال لافيجري الشهير وجمع فيهِ العاديات والآثار الفينيقية والقرطاجنية والرومانية واليونانية والاسبانية والتركية والعربية وقسمهُ الى اقسام كثيرة ملأَها بالاسلحة والمصابيح والحلى الذهبية والفضية والنحاسية والزجاجية والآنية الحديدية والنحاسية والفخارية وغير ذلك شيءٌ كثير

وبالقرب من هذا المتحف كنيسة عظيمة بناها الكردينال المذكور سنة ١٨٤٢ في البقعة التي توفي فيها الملك لويس التاسع الملقب بالقديس سنة ١٢٧٠ وكانت وفاتهُ بالطاعون الذي فشا في جندهِ وهو قاصد غزوة تونس . والكنيسة تفوق في الجمال والاتساع والزخرف كنائس

مصر والاسكندرية مع انهُ لا يصلي فيها سوى الرهبان . وقد انفق على بنائها النفقات الطائلة وكتب على جدرانها اسماءُ المتبرعين بالمال الكثير من فرنسا . وبعد وفاة الكردينال دفن فيها ونصب لهُ تمثال على قبرهِ من الرخام الابيض يمثلهُ وهو ماسك بيدهِ كتاباً ومتكيءٌ على ظهره.

وفي قرطاجنة ايضاً فندق صغير يحتوي على نحو عشرين غرفة يقيم فيهِ مندوبو الجمعيَّات العلمية والمؤرخون ينقبون ويبحثون ثم يعودون الى اوربا لنشر نتيجة ابحاثهم واكتشافاتهم . ولكن لسوء الحظ لم يبقَ من آثار قرطاجنة شيءٌ يذكر لان كنائس تونس وجوامعها وقصر احمد بك في قسطنطينة وبعض كنائس مالطة وصقلية ورومية اجتمعت كلها على سلب الكثير ممَّا وجد في انقاضها من اعمدة الرخام والمرمر والحجارة الرزينة

(المرسي) . وهي مبنية على شاطئ البحر اشتهرت بقصر علي باي الذي توفي فيهِ منذ شهرين تقريباً . وهو متسعٌ جدًّا ولهُ بابٌ كبير امامهُ ساحة يخطر فيها حرس الباي الخصوصي وعددهم نحو مئة جندي وفي المرسى الآن نحو خمسة آلاف من السكان

(سيدي ابو سعيد) . مبنية على مرتفع يشرف على البحر وهواؤُها جيدٌ جدًّا ومنظرها جميل وبيوتها بيضاءُ تحيط بها اشجار الزيتون

وعلى مسافة بعض كيلومترات من تونس شمالاً اراضٍ منبسطة اتخذها الفرنسويون منتزهاً عمومياً وقرروا انفاق عشرين مليون فرنك عليها وقد انفقوا نصف هذا المبلغ الى الآن زرتها في المركبة فحسبتني في منتزه فرنسوي لما رأيت من حسن تخطيط الشوارع تحفُّ بها الاشجار على جوانبها وفسقيات الماء في وسطها وفيها مرتفعات تطلُّ على مدينة تونس فتظهر منها كالحمامة البيضاء في الايكة الخضراء

(حمام ليف) . وهي مبنية على شاطئ البحر ويوصل اليها بسكة الحديد في نصف ساعة بين البحر والمزارع الغناء وراءها جبل ابو قرنين ارتفاعهُ ٦٤٠ متراً ولهُ قنتان شاهقان ومن ذلك سمي بابي قرنين . يتردد التونسيون والاجانب على هذه الضاحية خصوصاً في ايام الاحاد وهي تشبه سان ستفانو في رمل الاسكندرية وقد غرست الاشجار على طرقها . وفيها تياترو شاهدت فيهِ تمثيل جوق فرنسوي يمثل عادة ايام الصيف من كل سنة

واحسن الاشهر للسياحة في تونس شهر سبتمبر (ايلول) ويستطيع السائح ان يشاهد اهم مدن الجزائر وتونس وجبالها واوديتها وسائر ما يتعلق بها في اربعين يوماً

وقد افضت الكلام على تونس وضواحيها وسائر بلاد المغرب في الجزء الثاني من رحلتي وهو تحت الطبع

ادوار الياس

مكاتب المسلمين

المكاتب (الكتبخانات) دليل على كثرة المعارف وتفوُّق العمران وقد اثبت البحث في خرائب بابل واشور ان الميل الى جمع الكتب ليس حديثاً في الدنيا

وبالانتقال من فجر التاريخ الى نهارهِ الساطع الضياء نجد في الرومان رغبة شديدة في جمع الكتب اما ليستفيد منها افراد الناس او ليستفيد منها الجمهور. ولقد ظهرت هذه الرغبة من كثيرين من ملوكهم ولاسيما من ألبيوس تراجنس الذي انشأ اوسع المكاتب الملكيَّة . ويقال انهُ كان في رومية وحدها في القرن الرابع للميلاد ثمانٍ وعشرون مكتبة عمومية ولم تكن المكاتب محصورة في العاصمة وحدها

ولقد كان سقوط المملكة الرومانية الغربية بداءة انحطاط شأن المعارف فان البرابرة الذين اقتحموا تخومها تغلبوا عليها فنُسيت معارف الرومان او لم يبقَ لها شأن الا عند نفر قليل

ومرَّت قرون على اوربا تنازلت فيها عن حقها في عضد المعارف لامَّة اوجدها نداء الرسول العربي فان المسلمين وجَّهوا اعتناءهم الى رفع منار العلم بعد ان خرقوا سياج مملكة الروم وقوَّضوا دعائم مملكة الفرس . ومرَّت القرون الوسطى وازمَّة العمران في يد ابناء الصحراء

ولا بأس بايراد فذلكة من تاريخ المعارف عند المسلمين تمهيداً للكلام على مكاتبهم

من البيّن ان العرب كانوا على شيء من المعارف حتى في عصر الجاهلية يدلك على ذلك ما يُروي عن سوق عكاظ حيث كان الشعراء يتبارون ويُحكَم بالسبق للمبرزين منهم فتكتب قصائدهم في القباطي وتعلَّق على الكعبة اكراماً لهم . الاَّ ان اقدم المحفوظ من اشعارهم لا يمتد الى ابعد من قرن قبل الهجرة ولو قال قوم خلاف ذلك ولم تعرف الكتابة عندهم الأ قبل الهجرة بزمن يسير غير انها دفعتهم الى تسطير المحفوظ من اخبارهم واشعارهم ومهَّدت السبيل الى ارتقائهم العقلي وتلا ذلك ان ابا الاسود الدؤلي وضع قواعد النحو باشارة الامام علي فكان هذا مبدأ تدوينهم علوم اللغة

وبقيت معارف العرب قليلة جدًّا حتى موت النبي ولكن لم يمضِ عليهم وقت طويل حتى اتصلوا بالفرس والروم فعرفوا فوائد الحضارة وكان الفرس الذين بلغوا شأوا رفيعاً من العمران في عهد آل ساسان معلميهم الاولين ويتلوهم السريان الذين ارشدوهم الى علوم اليونان وفلسفتهم فتعلموا من الفرس الغناء والبناء والنقش والسياسة والفلسفة وحب التحلي والتأنق . واكثر علماء الاسلام من سكان بخارى وخرسان وبلخ ومن تلامذة مدارس البصرة ونيسابور وسمرقند وهرات

من اصل فارسي او تركي. اما علوم اليونان فجاءَت عن يد نصارى نصيبين والرها . وكان اكثر حملة العلم من الموالي كما قال الخليفة عبد الملك

ولم يكد المسلمون يدخلون ميدان العلم حتى خطوا فيهِ الخطى الطوال وسار خلفاؤُهم وكبراؤُهم في مقدمتهم ولم يكن قد نشأَ فيهم شيءٌ من التعصُّب الديني الذي من شأنهِ احتقار ما عند غيرهم من العلم والفلسفة بل تعلموا من الامم التي غلبوها واتقنوا علومها . واول مدرسة علمية في القرون الوسطى كانت مدرسة طليطلة التي انشأها العرب . وكانت مدرسة القاهرة المعروفة ببيت الحكمة على الاسلوب الذي اشار بهِ الفيلسوف باكون بعد ذلك بزمن طويل

واول من عني بجمع كتب العلم من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي وقد ذكرهُ ابن خلدون ونفى ما ينسب اليهِ لكن الاستاذ شبلي خطَّأَ ابن خلدون واثبت الفضل لخالد مستشهدًا بما قالهُ ابن نديم الذي قال ان خالدًا كان من اعلم الناس بفنون العلم ولهُ كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيرًا بهذين العلمين متقنًا لهما ولهُ رسائل دالة على معرفتهِ وبراعتهِ وبامرهِ ترجمت كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية . وبقيت رسائلهُ الى زمن ابن نديم

ولما تمهَّدت الامصار للخلفاء اخذوا في جمع كتب العلم الى ايام ابي جعفر المنصور فعني بترجمة كتب الفرس واليونان حتى اذا كثرت الكتب المترجمة والمؤلفة لدى الرشيد بنى لها بيت الحكمة وجعلهُ خزانة لها وديوانًا للمترجمين . فتقاطر العلماء الى بلاد المسلمين وكانت الكتب المجموعة في بيت الحكمة بلغات مختلفة فارسية ويونانية وقبطيَّة وسريانية. وكان يحيى بن خالد البرمكي رئيس هذه النهضة ومقدامها فاعتنى خصوصاً بنقل علوم الفرس لانهُ فارسيٌّ ونقل علوم الهند ايضاً

وجاء المأمون بعد الرشيد فاقتفى خطواتهِ وزاد في جمع الكتب وترجمتها ويقال انهُ انفق على ترجمة كتب اليونان ثلثمئة الف دينار . ولما كان في مرو راقت لهُ اساليب الفرس فاقتدى بازدشير وجمع كثيرًا من التحف القديمة مما كان في بلاد العرب قبل الاسلام من ذلك كتابة كتبها عبد المطلب بيدهِ . وبقي جانب من الكتب التي جمعها الى القرن السابع من الهجرة ورآها ابن ابي اصيبعة (صاحب كتاب طبقات الاطباء) . والاهتمام بجمع الكتب وترجمتها دعا الى الاهتمام بصناعة النساخة والتجليد فاشتهر بالاولى ابن البواب وابن مقلة ووزير المقتدر بالله وياقوت المستعصمي وميرعلي وكان العرب يتنافسون في اجادة الخط كما يتنافس غيرهم في التصوير حتى ان الخليفة عثمان كتب بيدهِ اربع نسخ من المصحف ارسلها الى الآفاق واقتفى اثرهُ الحجاج بن يوسف الثقفي واهدى نسخ المصحف التي نسخها بيدهِ الى عواصم المملكة

وكان السلطان ابرهيم بن محمود الغزنوي يجيد الخط ويكتب نسخة كاملة من القرآن كل

سنة يرسل بها الى مكة. وذكر ابن خلدون ان السلطان ابا الحسن سلطان افريقية كتب نسخة من القرآن بيدهِ وبعث بها الى مكة ونسخة اخرى بعث بها الى المدينة وكان ينوي كتابة نسخة ثالثة يبعث بها الى بيت المقدس فتوفي قبل اتمامها

وانتشرت الرغبة في جمع الكتب في بغداد كلها اقتداءً بالمأمون وكان كبراء الامة لا يضنون بمال في هذا السبيل فانشأ الفتح بن خاقان وزير المتوكل بالله مكتبة عظيمة . وكان وزير الواثق بالله ينفق ثلاثين الف دينار كل شهر على ترجمة الكتب ونسخها

وكانت كتب الواقدي (في القرن التاسع) تملأ ستمئة صندوق ويقتضي حملها مئة وعشرين جملاً

ولما انتقلت الخلافة من بني اميَّة الى بني العباس هرب عبد الرحمن الاموي الى الاندلس فرحَّب بهِ اهلها وانشأ دولة في قرطبة فناظرت القاهرة و بغداد او فاقتهما . وبلغت علوم العرب اوجها في بلاد اسبانيا فلها اوربا مديونة اعظم دين لانها اوقدت مصباح المعارف في اوربا . وكان للمستنصر بالله الحكم سلطان قرطبة اليد الطولي في هذه النهضة العلمية فانهُ جلب كتب الفلسفة من البلاد الشرقية وامر بترجمتها . قال المقري انهُ "كان يبعث في شراء الكتب الى الاقطار رجالاً من التجَّار ويرسل اليهم الاموال لشرائها حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوهُ وبعث في كتاب الاغاني الى مصنفهِ ابي الفرج الاصفهاني وارسل اليهِ الف دينار من الذهب العين فبعث اليهِ بنسخة منهُ قبل ان يخرجهُ الى العراق. وجمع بدارهِ الحذَّاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فاوعى من ذلك كلهِ واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لاحد من قبلهِ ولا من بعدهِ الَّا ما يذكر عن الناصر العباسي بن المستضيء ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة الى ان بيع اكثرها في حصار البربر" . واثبت ابن خلدون ان اسماء دواين الشعر كانت تملأ ٨٨٠ صفحة

واختلف المؤرخون في عدد الكتب التي كانت في خزائن الحكم ولكنهم اتفقوا على انها كانت كثيرةً وكان على كثير منها شروح وحواش بيدهِ

وخلف الحكم ابنهُ هشام المؤيد بالله وكان صغيرًا فولي الاحكام وزيرهُ المنصور ابن ابي عامر وكان كارهًا للفلسفة فاتلف كتب الحكمة والهيئة وكل ما فيها من علوم الاوائل وابقى كتب اللغة والشعر والتاريخ والفقه والحديث وظلَّ الحال على هذا المنوال والناس على غير رأي الحكم الى ان انقرضت دولة بني أمية من الاندلس

ثم كثرت الفتن في البلاد وعبثت بالكتب الايادي فنقل بعضها الى اشبيلية وبعضها الى غرناطة وبعضها الى الالميرة وغيرها من العواصم . وبلغ عدد المكاتب العمومية في اسبانيا لمَّا

كانت في اوج مجدها في عصر العرب سبعين مكتبة . ولا يزال فيها حتى الآن كثير من كتب العرب رغماً عمّا مرَّ بها من ازمنة البؤس ورغماً عما ابداهُ النصارى وقت اخراجهم العرب

نقل المقري عن الحضرمي ما خلاصتهُ ان الحضرمي كان يقيم في قرطبة ويحضر سوق الكتب كل يوم عساهُ يعثر على كتاب كان يتطلبهُ وظلَّ على ذلك اياماً واخيرًا عثر على الكتاب المطلوب فسامهُ وصار كلما زاد الثمن زادهُ الدلال اكثر حتى بلغ مبلغاً فاحشاً لا يستحقهُ فقال للدلال مَن مناظري في ابتياع هذا الكتاب فاراهُ رجلاً من الكبراء فحياهُ الحضرمي قائلاً حيًّا الله مولانا الاستاذ على مَ تغالي في هذا الكتاب فقد فاق ثمنهُ ما يستحقهُ فان كنت ترغب فيهِ فهو لك من غير مزايدة فقال الرجل لست استاذًا ولا انا عارف موضوع الكتاب ولكن في بيتي خزانة كتب جمعتها ليعلو بها شأني بين اقراني ولم يزل فيها فراغ يسع هذا الكتاب فاريد ان ابتاعهُ لتتم بهِ

ولما عقد الصلح بين ابي يوسف سلطان المغرب الاقصى وبين دون سنخو كان من جملة شروطهِ ان يرد دون سنخو الكتب التي غنمها من مدن المسلمين فردها ووضعها السلطان في المدرسة التي بناها بفاس لكي يطالعها طلبة العلم

ولما ضعف شأن الخلفاء العباسيين وقوي ملوك الطوائف استقلَّ بنو سامان في بخارى وبنو حمدان في الشام وبنو بويه في شيراز والفاطميون في مصر وكانت هذه الدول المستقلَّة تتنافس في رفع شان العلم وتقريب رجالهِ فانشأَ نوح بن منصور سلطان بخارى مكتبة كبيرة قال عنها ابن سينا انهُ دخلها وكانت عديمة المثال فيها من كل فن من الكتب المشهورة بايدي الناس وغيرها ممَّا لا يوجد في سواها ولا سمع باسمهِ فضلاً عن معرفتهِ فظفر فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها وحصل نخب فوائدها واطلع على اكثر علومها

ونوح بن منصور هذا هو الذي عرض الوزارة على الصاحب بن عباد فاعتذر عن قبولها بانهُ لا يستطيع ان ينتقل اليهِ ما لم يأْخذ معهُ كتبهُ وهي حمل اربع مئة جمل

وذكر البشاري ان عضد الدولة انشأَ في شيراز اكبر المكاتب وجعلها في جانب من قصرهِ ولم يكن لها مثيل في ممالك الاسلام. وقال الامام الثعالبي انهُ ما من دار من دور الامراء بعد دور العباسيين كانت كثيرة الكتب مثل دار سيف الدولة وهو الذي قرَّب ابا نصر الفارابي وكان يجري عليهِ النفقة الى حين وفاتهِ. وقضى ابو الفرج الاصفهاني خمسين سنة في جمع كتاب الاغاني وحملهُ اليهِ فاجازهُ بالف دينار واعتذر اليهِ عن قلَّة المال لديهِ

(ترجمت من مقالة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية للقاضي خوده بخش قاضي قضاة حيدر اباد . وستأْتي بقيتها)

اتقاء الكوليرا وعلاجها

ظهرت الكوليرا في بلد موشه بالقرب من اسيوط في اواسط الشهر (يوليو) واشتدَّ فتكها حالاً فصار يصاب بها ثلاثون او اربعون في اليوم يموت منهم عشرون او ثلاثون . وحالما شعر السكان بظهور هذا الوباء لجأ بعضهم الى الفرار فاوصلوهُ الى القاهرة . ونحن نكتب هذه السطور في السادس والعشرين من الشهر وفي نشرة مصلحة الصحة ان عدد الذين توفوا بالكوليرا خارج المستشفى في الاربع والعشرين ساعة الماضية ٦٢ وعدد الذين درت بهم قبلما توفوا ونقلتهم الى المستشفى ١٦ ولا بد من ان يكون كثيرون قد اصيبوا ولم تدرِ بهم لان ذوي المصاب يخفونهُ عادةً . ولو كانوا يخبرون عن كل مصاب حتى يُعزل عن غيرهِ حالاً ويمنع انتقال العدوى منهُ لكان الوباء حُصر في مبدإِهِ ومُنع عن الانتشار

وغنيٌّ عن البيان ان الكوليرا وكل الامراض المعدية لا تتولَّد الاَّ بالعدوى كما ان نبات القطن لا يتولَّد الاَّ من تقاوي (بذار) القطن ونبات القمح لا يتولَّد الاَّ من تقاوي القمح. ولم تكن الكوليرا في القطر المصري كلهِ منذ شهرين من الزمان فهي وافدة اليهِ من الخارج من مكان كانت فيهِ واتى بها احد الناس اما بماء تخالطهُ ميكروباتها او بثياب ملطخة ببراز اناس ماتوا بها. ونودُّ ان تبحث الحكومة بحثاً مدققاً عن كيفية وصولها الى القطر المصري لتعاقب الذين اوصلوها عقاباً صارماً جزاء لهم وعبرةً لغيرهم وليتضح للناس كيفية انتقال هذا الوباء فيجتنبوهُ في المستقبل

ونعيد هنا ما قلناهُ وكررناهُ مراراً منذ عشرين سنة الى الآن وهو ان الكوليرا تنشأُ من ميكروبات صغيرة جدًّا لا تُرَى بالعين لصغرها تدخل معدة الانسان مع الماء الذي يشربهُ او الطعام الذي يأْكلهُ فاذا لم تهضمها معدتهُ بل وصلت الى امعائهِ سليمة نمت فيها وتكاثرت وحاول جسمهُ التخلُّص منها ومن سمها بالقيء والاسهال فتمتزج بهما. والغالب ان سمها ينتشر في بدنهِ ويميتهُ. واذا اتَّصلت مبرزاتهُ بالماء او غسلت ثيابهُ الملطخة بها في ترعة يشرب الناس منها انتشر ميكروب الكوليرا في الماء ودخل معَد الذين يشربونهُ . والذين يخالطون المصاب او يغسلون ثيابهُ قد تتلطخ ايديهم بشيءٍ من مبرزاتهِ ثم يمسكون طعامهم قبل غسلها جيدًا فيتصل الميكروب بهِ . واذا طُرحت المبرزات في الشوارع فقد تقع عليها الذبان فيلصق ميكروب الكوليرا بارجلها واجنحتها ثم تقع على الطعام فتنقل الميكروب اليهِ

هذه هي اشهر طرق العدوى ومتى عُرفت ظهر ان التوقي منها يقوم بالامور الآتية وهي

اولاً . حفظ المعدة في حالة الصحة حتى تستطيع هضم ميكروب الكوليرا اذا دخلها . وقد شرب الدكتور كلين خصيم الدكتور كوخ كاساً فيها كثير من ميكروبات الكوليرا فلم يصب بمكروه ثم ثبت انهُ ما دامت حموضة المعدة طبيعية مات ميكروب الكوليرا فيها ولكن اذا زالت الحموضة منها وصارت قلوية لم يمُت بل مرَّ فيها سليماً الى الامعاء حيث يلقي عصاهُ وينمو ويتكاثر ولذلك يشير الاطباء باضافة قليل من الحامض اللبنيك او الهيدروكلوريك الى الماء وقت شربهِ تسهيلاً للهضم ومساعدةً لحموضة المعدة على قتل ميكروب الكوليرا

ثانياً . تنقية الماء مما يمكن ان يخالطهُ من ميكروبات الكوليرا باغلائهِ ثم تبريدهِ فان ميكروب الكوليرا يموت بالحرارة ولو كانت درجتها بين ٥٥ و ٦٠ بميزان سنتغراد اي تحت درجة الغليان بكثير ولكن الاغلاء اوقى . اما اذا كان الماء نقياً لا سبيل لاتصال ميكروبات الكوليرا بهِ فلا داعي لاغلائهِ

ثالثاً . تنقية المآكل كلها بتسخينها قبل اكلها او بغسلها بالماء الغالي حتى الخبز والفاكهة لان الذبان الذي يقع عليها قد ينقل ميكروب الكوليرا اليها

رابعاً. غسل اليدين قبل الاكل بماء فيهِ ما يميت ميكروب الكوليرا كالحامض الكربوليك والسليماني اما الحامض الكربوليك فيمزج الدرهم منهُ بخمسين درهماً من الماء. واما السليماني فيمزج الدرهم منهُ بثلاثة آلاف درهم من الماء

خامساً . الامتناع عن الاطعمة التي تلبّك المعدة مهما كانت وعن الاكثار من اي طعام كان لانهُ اذا تلبكت المعدة وضعفت عسر عليها قتل ميكروب الكوليرا اذا دخلها

سادساً . الابتعاد عن الاماكن الموبوءة اذا امكن لان وسائط التوقي قد لا تمنع وصول ميكروب الكوليرا الى الطعام او الى الشراب لا سيما وان الذبان تنقلهُ اليهما كما تقدَّم

اما قيء المصابين ومبرزاتهم فيجب صب السليمان عليها كلها لكي يميت ما فيها من الميكروبات وثيابهم الملطخة بقيئهم ومبرزاتهم تطهَّر بالبخار السخن او بمحلول السليماني او تحرق وهذا هو الاسلم. ولا يجوز صب مميتات الميكروبات في الكنف لان ميكروبات الفساد التي في الكنف تكفي لاماتة ميكروب الكوليرا واما اذا صُبَّ فيها مواد مميتة للميكروبات فقد تميت ميكروبات الفساد وتبقي ميكروب الكوليرا حيًّا

هذا من حيث الوقاية من الكوليرا اما العلاج فيجب ان يوكل الى الطبيب . ونذكّر حضرات الاطباء باسلوبين شهيرين لمعالجة المصابين بالكوليرا الاول اسلوب الدكتور كنتاني على ما ورد في خطبة مسهبة لهُ عرَّبها المرحوم الدكتور سالم باشا سالم ونشرناها في المجلد الثالث

عشر من المقتطف والثاني اسلوب الدكتور السر جورج جنسن الذي لخصهُ الدكتور وديع برباري بعد ان استعملهُ في الكوليرا الماضية ونشرناهُ في المجلد الثالث والعشرين من المقتطف

اما الاسلوب الاول فمدارهُ على ان الحامض التنيك الذي مزج الدرهم منهُ بمئة درهم من الماء وسخّن الى الدرجة ٣٨ يميت ميكروب الكوليرا في الامعاء اذا حُقن بهِ من المستقيم او يمنع ضررهُ وان الماء الذي فيهِ قليل من الملح يقاوم تكاثف الدم

اما الحامض التنيك فيذاب عشرة جرامات منهُ الى عشرين غراماً في ليترونصف الى ليترين من الماء السخن الذي حرارتهُ نحو اربعين درجة ويضاف اليها من ٢٠ الى ٣٠ نقطة من اللودنوم ويحقن بهِ المصاب في المستقيم . واما الملح فيذاب اربع جرامات منهُ و٣ جرامات من كربونات الصودا في لترمن الماء السخن ويحقن بهِ المصاب تحت الجلد في الجزء القطني البطني والاربيتين وتحت الكتفين والاليتين. والحقن الاول بالحامض التنيك يميت الميكروب فيوقف الاسهال والحقن الثاني بالماء والملح يقاوم تكاثف الدم والتسمم الهيضي الكيماوي وهو لا يستعمل الاَّ في الادوار الاخيرة من ادوار الكوليرا

واما الاسلوب الثاني فمدارهُ على ان القيء والاسهال اللذين يكونان في الكوليرا طريقتان يلجأُ اليهما الجسم لاخراج المواد المهيجة من الامعاء وبالمشاركة تتهيج المعدة ويحدث القيء. فالاسهال علاج طبيعي تجريهِ الطبيعة للتخلُّص من ميكروب الكوليرا ومن سمّهِ . فمن كانت بنيتهُ قويَّة وقوي على احتمال هزال الاسهال الى ان يتم التخلُّص من سم ميكروب الكوليرا نال الشفاء والاَّ ذهب شهيد السم والاسهال . وشدَّة الاسهال تكون بالنسبة الى شدَّة المرض وكثرة الميكروبات وقوة فعلها وضعف البنية عن احتمالها . فكلما زادت المواد المهيجة زاد احتياج الجسم الى قوة طاردة . فالموت من شدَّة الاسهال دليل على قوة السم ولذلك فكل واسطة توقف الاسهال قبل خروج السم من الجسم تعجل الموت او تجعلهُ امراً محتوماً . اما توقف الدورة الدموية في درجة التهوُّر او الدرجة الثالثة من درجات الكوليرا فمسبَّب عن تقلُّص الطبقة العضليَّة في الاوعية الدموية بسبب تهييج سم الكوليرا الذي في الدم وبذلك يعلل فراغ الشرايين من الدم وفقد النبض وازرقاق العينين وغورهما وبرودة الجسم . وتعاق الدورة الدموية في الرئتين فتقل كمية الاكسجين الداخلة الى الجسم ويتكاثف الدم فاذا فصد وريد من اوردتهِ في كل ذراع ونزل نقط قليلة من الدم منها يخف الضغط عن القلب ويزيد تقلُّص عضلاتهِ وتعود الدورة. وقد ذكر الدكتور برباري القواعد التالية لمعالجة الكوليرا حسب اسلوب الدكتور جنسن وهي

اولاً . يجب الانتباه الى كل اسهال في زمن انتشار الكوليرا ولا يجوز اهمالهُ ساعة واحدة

ثانياً . لا يجوز السعي في توقيف هذا الاسهال بواسطة مركبات الافيون او غيرها من القوابض ما دامت الدلائل تدلُّ على وجود مواد سامَّة او مهيجة او منتنة في الامعاء والاَّ فيكون فعل القوابض وقتيًّا ومتى انتهى رجع الاسهال . وفي مدة استعمال القابض يزيد امتصاص الجسم للسم الذي في الامعاء ولذلك يجب طرد السم من الامعاء اولاً بمسهل بسيط ولا بأس بعد ذلك بأخذ جرعات صغيرة قابضة لتلطيف الاسهال اذا زاد كثيرًا

وقد وُجد بالاختبار ان زيت الخروع احسن مسهل في هذه الاحوال لسرعة فعلهِ ولعدم تهييجهِ الامعاء ولما يعقبهُ من الامساك فتؤخذ ملعقة كبيرة منهُ بعد ان تمزج باللبن او عصير الليمون الحامض او الكنياك او مستحلب الصمغ العربي اخفاء لطعمهِ واذا تقيأ المصاب الجرعة الاولى تكرَّر حالاً ويمنع من تناول شيء الى ان يمضي نصف ساعة اي حتى يصل الزيت الى امعائهِ ويبتدئ فعلهُ . واذا حدث من فعلهِ ضعف يعطى المصاب نقطاً قليلة من الافيون . واذا كان لا يستطيع شرب زيت الخروع مطلقاً فلا بأس باعطائهِ الكالومل مع الكافور . فاذا فعل المسهل فعلهُ واتضح انهُ لم يبقَ في الامعاء الم ولا غاز ولا تطبُّل ونظف اللسان يستنتج ان المهيجات قد خرجت من الامعاء وان الامعاء قد صارت في غنىً عن المسهلات فيعطى المصاب اذ ذاك طعاماً لطيفاً مع قليل من الكنياك ويوقف الاسهال بالافيون

ثالثًا . لا يعطى الافيون الاَّ بعد ان يخرج ميكروب الكوليرا ومفرزاتهُ من الامعاء اي لا يقفل الباب قبل خروج العدو بل بعد خروجهِ ويجب في بعض الاحوال ان يكرَّر زيت الخروع والافيون بالتعاقب للتلطيف اذا كان الاسهال قويًّا وبائيًّا مضعفاً . واذا فُرِّغت الامعاء بجرعة من زيت الخروع تعود فتمتلئ حالاً من الافرازات المهيجة التي تكون قد تكونت فيها او رشحت من الاوعية الدموية . فيعاد اعطاء زيت الخروع

واذا رافق الاسهال قيء وجب مساعدتهُ بالماء السخن . وفائدة الماء السخن مزدوجة فانهُ ينبه الدورة الدموية ويساعد الاسهال على طرد المواد المهيجة . ولكن اذا جاشت النفس ولم يحدث القيء وترجَّح وجود مواد مهيجة او غير مهضومة في المعدة فلا يكفي الماء السخن بل يلزم اعطاء مقيء كملعقة صغيرة من الخردل او ملعقة كبيرة من ملح الطعام او عشرين قمحة من مسحوق عرق الذهب في ماء سخن . ومتى زاد القيء في القوة او عدد المرات يحسن تلطيفهُ بالثلج او بوضع الخردل على المعدة او اعطاء جرعة من الكالومل لتصريف مهيجات المعدة عن طريق الامعاء

ويروى العطش باعطاء الماء المبرَّد المحمَّض بقليل من عصير الليمون الحامض او الحامض الكبريتيك العطر . ولا بدَّ من ان يكون ماء الشرب نقيًّا وان يقيم المصاب في الفراش

واذا استمرَّ الاسهال وصارت المواد المفرزة مائلة الى البياض كماء الارزّ وهبطت حرارة الجسم وازرقَّ لونهُ يكون المرض قد وصل الى الدرجة الثالثة درجة التهوُّر فيجب حينئذٍ ان يلقى المصاب على ظهرهِ ويرفع رأسهُ وصدرهُ عن مساواة جسمهِ ويمنع عن الحركة وتفتح لهُ الشبابيك والابواب لتجديد الهواء ويسمح لهُ بشرب مقدار كبير من الماء المبرَّد بالثلج او قطع الثلج ولكن لا الى درجة كافية لحط حرارة الجسد الداخلية. واذا اشتدَّت الحالة جدًّا فيستحسن الجري على ضد ذلك اي يسقى الماء السخن لتدفئتهِ وتنبيه الدورة الدموية . واذا لم يحصل قيء في الحالين يمنع القيء لئلاَّ تتمدَّد المعدة بهِ فتعيق التنفُّس. وقد مدح بعضهم الحقن بالماء السخن لتنبيه الدورة الدموية ولا غنًى عن تدفئة الاطراف بالفلانلاَّ المسخنة وقزائز الماء السخن

ومتى حدثت الاعتقالات العضلية في الدرجة الثالثة يستعمل الدلك بالفلانلاَّ المسخنة ولا بأس باستعمال الادهنة المنبهة كالكلوروفورم والتربنتينا ووضع الاطراف في ماء سخن اضيف اليهِ خردل

وتعرف حالة المصاب من المواد البرازية وحالة البطن ففي الاصابات السليمة يدوم الاسهال مدة الدرجة الثالثة والى بداءة رد الفعل . ومن اول علامات الشفاء ظهور الصفراء بعد انقطاعها مع المواد المستفرغة والمبرزة. واذا انقطع الاسهال في الدرجة الثالثة ينتهي المرض بالموت غالبًا وعليهِ فمن اهم الامور في الدرجة الثالثة منع الامساك بجرعات صغيرة من زيت الخروع . ومن دقق في فحص المصاب في الدرجة الثالثة وجد امعاءهُ متمددة بالمواد المائعة وليس فيها قوة لدفعها

واذا حدث نزف من الامعاء يمنع استعمال زيت الخروع ويبدل بزيت التربنتينا ٢٠ نقطة كل ساعتين مع مستحلب الصمغ العربي . ويمنع اعطاء الطعام للمصاب في الدرجة الثالثة لان افرازات المعدة تكون متوقفة فيبقى الطعام غير مهضوم ولا بدَّ من اعطاء مسهل خفيف من وقت الى آخر في درجة رد الفعل ويطعم المصاب حينئذٍ الاطعمة المغذية الخفيفة كاللبن والارز والتبيوكا والاروروط . وتكون المعدة ضعيفة وتبقى مدة قبل ان تسترجع قوتها على هضم الجوامد فيحسن في هذه الحالة ان يعطى المصاب جرعات صغيرة مقوية من الكينا والحامض الهيدروكلوريك مع الطعام

ومعلوم ان هذه الوسائل العلاجية لا يقوم بها غير الطبيب ولكن اذا كان اهل المريض عارفين بها ساعدوا الطبيب في استعمالها وسهل عليهم استعمالها في غيبتهِ ايضاً. اما الوسائل الواقية فيجب ان يعلموها ويعملوا بها من تلقاء انفسهم

باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناهُ ترغيباً في المعارف وانهاضاً للهمم وتشحيذاً للاذهان . ولكنَّ العهدة في ما يدرج فيهِ على اصحابهِ فنحن براء منهُ كلهِ . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمهِ ما ياتي : (١) المناظر والنظير مشتقَّان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيرهِ عظيماً كان المعترف باغلاطهِ اعظم (٣) خير الكلام ما قلَّ ودلَّ . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطوَّلة

المرأة الشرقية

وصلني اليوم مقتطف مايو الماضي فرأيتُ فيهِ مقالةً نفيسةً لحضرة الكاتب البليغ اسعد افندي داغر موضوعها " المرأة الشرقية " بها يشكو تقصير نسائنا بازاء اخواتهنَّ الغربيات ملقياً تبعة ذلك التقصير على الرجال كأني بهِ يستنهض هِمم المشارقة لاصلاح حالتهم الاجتماعية عموماً وترقية نسائهم على الخصوص

وكنتُ وانا أُطالعُ هذه المقالة كَمَنْ يقرأُ افكارَهُ وافكار كثيرين مثلهِ من شبان المشرق الى ان وصلتُ الى اواخرها فوقفتُ عند قولهِ : — " وعندي ان المرأة الشرقية كاللغة العربية في حاجةٍ شديدة الى الترقية والاصلاح . وتبعة قصور كلٍّ منهما علينا نحن الرجال "

افكارٌ كثيرة مكدرة تمرُّ في مخيلة الشرقي الجالس في مكتبهِ في العالم الغربي وهو يطالع جرائد وطنهِ ومجلاتهِ التي سداها المجاهرة بكوننا متاخرين ولحمتها الحث على الاصلاح لانهُ لا يرى سوى " كلام في كلام " . ثم يرى جرائد العالم الاوربي والاميريكي ومجلاتهِ تبحث عن اعمال الحكومة ونفعها او ضرها وعن مساعدة ولاة الامور لذلك المشروع او محاولتهم نبذ ذلك القديم المضر واقناع الشعب باتخاذ هذا الجديد النافع — اي انهُ يرى " افعالاً في افعال "

يقف الشرقي المتغربُ عند هذا المشهد المؤثر وقفةَ الحزين الآسف . يقف حزيناً لانهُ لا يرى تقصيراً في رجال الشرق على ما اتهمهم بهِ حضرة الكاتب فانهم عند ما توفرت لديهم معدات النجاح اظهروا ما اشتهر عنهم من علو الهمة وتوقُّد الذهن . وشواهدنا على ذلك حسيةٌ عديدة نراها في نوابغهم في القطر المصري وغيرهِ حيثما وجدوا المسعفات من اهل الحل والربط لاظهار مقدرتهم العقلية في ميدان التقدم ويقف آسفاً متكدراً لان احوال كتَّابنا لاتساعدهم

على البحث عن السبب المانع من وجود هذه "المسعفات" في اكثر بلدان المشرق وبغيرها لا يتم اصلاح النساء واصلاح اللغة واصلاح الوطن

اتاني طبيب امركاني قبيل كتابة هذه السطور وقال لي في حديثهِ ان زوجتهُ مضت الى العاصمة — ريوجانيرو — لكي تخلص بعض الامتعة الواردة اليهما حديثًا من الولايات المتحدة. اي ان امرأة سافرت في قطار سكة الحديد ١٤ ساعة الى مدينةٍ يكره اهاليها الاجانب وعمّال جماركها مشهورون بتصعيب الامور في تخليص بضائع الاجانب. ولكن المرأة الامريكية لاتبالي باصعب من هذه المشقات فهي امرأة كدّ وتحمل. امرأة تفكيرٍ وترو. امرأة دأبها الاستقلال الشخصي وديدنها الشجاعة الادبية امرأة تشارك الرجل في جهاد الحياة . وكل هذه امور لا ننكرها على الامريكية . ومنذ بضعة ايام اتتني فتاة سورية واستشارتني فيما يجب ان تعمله لوقايتها من امراض العاصمة الكثيرة فانها مزمعة على السفر اليها لكي تشتري بضائع لمحل تجاري لها وهو خاص بها وحدها ومسجَّل باسمها . وهي تديرهُ وتحسن ادارتهُ في داخلية هذه الولاية حتى صار معها من الجنيهات الانكليزيات ما يُعَدُّ بالالوف وهي على غاية من الظرف والتهذيب

الاولى امرأة امريكية طنطنت باخبار تقدمها جرائد العالم . والثانية سورية شرقية من وادي التيم دلَّت بنجاحها المادي وارتقائها الذاتي على انها تقبل التقدُّم مثل الاميركية وتتقدم بنفسها من غير واسطة حيث لا تجد مانعًا اجتماعيًّا يمنعها من ذلك او عائقًا سياسيًّا يعوقها عنهُ. فما السبب الذي جعل الغربيات يفقن الشرقيات مع انهنَّ من جبلةٍ واحدة وجنس واحد وطباع واحدة ؟ هل السبب من نفس المرأة الشرقية ام السبب كل السبب هو كون الاحوال الخارجية — الاجتماعية والسياسية — المحيقة بأُم المشرق بنسائها ورجالها ولغتها هي غير الاحوال الخارجية التي في العالم الغربي

وقبل ان اسأل هذا السؤَال كان الاجدر بي ان اسأَل لماذا نرى الرجل الغربي اكثر ارتقاءً من الشرقي . وهذه الحقيقة اعني تأَخر الشرقي حقيقةٌ محزنة ولكن الجهر بها من اوجب الواجبات على الباحث في الاصلاح

اذا علمنا اسباب تاخر رجالنا علمنا ايضًا اسباب تاخر نسائنا وتأَخر لغتنا وتأَخر كل شيءٍ مختصٍ بنا فانهُ من المستحيل على الرجل المرتقي ان يرضى بتزوج امرأَةٍ على غاية من الجهل والسذاجة كما انهُ من المستحيل ايضًا على نساء الامة المرتقية مدارك رجالها ان يبقينَ في حالة الجهل

قد قال احد الباحثين العصريين ان الرجل لا بد من ان يكون على حالة من حالات ثلاث في ما يتعلق بنظرهِ الى المرأة . اما ان ينظر اليها كانها آلة للتوليد لا غير . او ان يتساهل

فيقول انها مساوية لهُ في بعض الامور لكنها اضعف منهُ عقلاً واكثر منهُ حاجةً الى الاعتماد على الغير . او ان يعتقد انها مثلهُ في جسم الهيئة البشرية لها ما للرجل من الحقوق وعليها ما عليهِ نحو المجتمع الانساني من الواجبات . فمن اي نوع من هذه الانواع الثلاثة يمكننا ان نعد معظم رجالنا في الشرق يا ترى ؟

قام قاسم بك امين ونشر كتابيهِ الجليلين في "المرأة الجديدة" "وتحرير المرأة" . وبيَّن فيهما ان تأخر المرأة الشرقية ناتج عن تأخر الرجل الشرقي . فكيف يمكننا اذن اصلاح المرأة قبل اصلاح الرجل وهو الذي خصَّتهُ الطبيعة بكونهِ الاقوى والبادئ في كل شيء

وُجد قاسم بك امين الذي نعتهُ المقتطف بحق بلوثيروس الشرق في زمنٍ تنبهت فيهِ افكار المشارقة الى طلب الاصلاح . ولكن هل يتأتَّى النجاح لمصلحنا الفاضل بغير ان يقوم لهُ من ولاة الامور مَن يساعدهُ على نيل المرغوب ؟ أكان نجاح لوثيروس ميسوراً لهُ لو لم يقم منتخب سكسونيا ويأخذ بيدهِ في ذلك الموقف الحرج ؟ أكانت ترقية اليابان سهلةً لو لم يكن الميكادو الحالي ورجال دولتهِ من اول المنادين بالاصلاح والعاملين بهِ . وهل أخذت اشعة الاصلاح تنير القطر المصري لو لم يقم من ارباب الحل والعقد هناك من مهَّد السبيل كذلك . . . . . . واذا طرقنا باب البحث من وجهةٍ أُخرى نجد ان اصلاح الرجال لا يقوم بدون تعميم التعليم والتهذيب. وهذا ايضاً لا يتيسر لاية أُمةٍ كانت ما لم تأخذ القوة الحاكمة معظم ذلك على عاتقها وتجعل التعليم الزامياً كما نراهُ الآن في ارقى ممالك الارض . وعندئذٍ يستحيل على الرجل المهذب ان يحرم بناتهِ من التنوير وحسن التربية اذا كانت تلك التربية ميسورةً لديهِ في مدارس اميرية لا تكلفهُ كثير نفقة

وكلمة "الزامي" في الفقرة السابقة جعلتني اذكر الآن ما نقلتهُ في صدر هذه الرسالة من كلام اسعد افندي داغر عن "ان المرأة الشرقية كاللغة العربية محتاجة الى الاصلاح" . كأنهُ من الممكن ترقية اللغة بدون ترقية الامة المتكلمة بها . وكأن ترقية تلك الامم الشرقية الخاضعة الآن لحكومات أجنبية مماَّ يمكن رجال المشرق من غير ان يقوم بينهم من اولي الامر والنهي انفسهم مَن يعينهم على نيل المرغوب

كيف ترتقي العربية وقد طردتها الانكليزية من القصر العيني بمصر عن يد القوة الحاكمة نفسها ؟ وكيف ترتقي العربية وقد دُحرت من المدرسة الكلية السورية ببيروت منذ نيف وعشرين سنةً وفي خلالها لم نرَ تأليفاً علمياً صدر من ذلك الصرح العلمي الشهير . وكنَّا قد اعتدنا ان نرى عشراتٍ من التآليف العربية المفيدة قبل تلك الحادثة المكدرة . والى الآن لم أرَ

مؤلفاً عربياً خطتهُ يد احد المتخرجين من الكلية اليسوعية في بيروت لانها لم تعتني الاعتناء اللازم باللغة العربية منذ تأسيسها

فكيف يتسنى لنا اذاً ترقية لغتنا ونحن لا نجد الاَّ المُعاكسات من اكثر الذين لهم النفوذ في الشرق والذين منهم وحدهم يرجى كل تنشيط وتشجيع . وعندي ان اعتداد اهل القطر المصري بكلام المستر ولمور وهو قاضٍ انكليزي في بلادٍ عليها السيطرة الانكليزية يؤيد ما نحن بصددهِ الآن . فان الضعيف كثير التشبه بالقوي والمرؤُوس يكثر من تقليد الرئيس

وقد حان للشرق ان يرى في مقدمة المُصلحين كثيرين من ارباب النفوذ والوجاهة . فان في رجال الشرق همةً قعساء لا ينكر وجودها أحدٌ الاَّ من اعمت بصيرتهُ الاغراض الذاتية او التعصبات الجنسية . وما التقصير من "رجالنا" بل جلّ ما ينقصهم هو ان تمهد لهم القوات المتسلطة في الشرق سُبُلَ الترقية والنجاح والاَّ فكل الابحاثِ عن هذه المواضيع واشباهها لا يكون على ما ارى سوى "كلام في كلام"

الدكتور
سعيد ابو جمره
سان باولو بالبرازيل

مدارس الشويفات الانكليزية

في العشرين من حزيران (يوليو) احتفلت مدارس الشويفات الداخلية للصبيان والبنات احتفالها السنوي المعتاد فشهدهُ جم غفير من اعيان الوطنيين والاجانب وجرى الاحتفال قبل الظهر في مدرسة البنات فالمنتهيات منهنَّ وقفنَ موقف الخطابة والقينَ على مسامع الحضور خطباً بالانكليزية والعربية والافرنسية دلَّت على سلامة ذوقهنَّ وبراعتهن في الالقاء وكان لكلامهنَّ وقع حسن في قلوب سامعيهِ وفي الختام وقف جناب الفاضل الدكتور هنري جسب وخطب خطاباً انيقاً كانت تغشاهُ سحابة من تصدية الاستحسان عند كل وقفة . ثم وزعت الشهادات على المنتهيات وهنَّ . عدلا شهاب . اسمى بللع . نبيهة شهاب . روزا ابو مسعود . ادال ابو مسعود . نظلة برباري . املي دمشقي . اولغا كوراني . فريدة نخو . نلي سليمان . ثم شدون مترنمات بلحن شجي بترنيمة وداعية حقق كل من سمعها انهُ في موقف وداع

ولما اذنت الساعة الواحدة ونصف بعد الظهر وهي المعينة لاحتفال مدرسة الصبيان الداخلية قدم الناس اليها زرافات فافتتح الحفلة جناب العالم رشيد افندي مراد الخوري استاذ المدرسة بقصيدة عامرة الابيات تتضمن مدح الجمهور وشكرهم لاجابتهم الدعوة بالحضور ثم القى بعض التلامذة خطباً بديعة فوفى كل منهم الخطابة حقها من تنسيق المعاني وحسن الالقاء

ولما فرغ الخطباء من القاء خطبهم وقف حضرة الاديب فؤاد افندي طانيوس غصن استاذ اللغة الافرنسية في المدرسة والقى خطاباً افرنسياً موضوعهُ الثبات اجاد بهِ ما شاء فكان تصفيق الجمهور لهُ متواصلاً . ثم تلاهُ جناب السري الامير شديد بللمع وقرظ الاحتفال تقريظاً لطيفاً بعبارات فصيحة مدح بها حضرة رئيسة المدرسة السيدة لويزا بروكتر وشكر مساعيها التي تكللت بثمرات النجاح في ترقية الطالبات درجات العلم والادب واثنى على جناب الهمام طانيوس افندي سعد مدير هذه المدارس وتلاهُ حضرة نجلهِ الذكي الامير توفيق فحضرة الامير بشير شهاب فحضرة ملحم افندي خلف وارفض الحشد يثنون على حضرات رئيسة المدرسة ومديرها واساتذتها

حنا صروف

باب التقريظ والانتقاد

تاريخ الرومانيين

تأليف محمد بك فريد المحامي

محمد بك فريد المحامي نجل المرحوم فريد باشا من اعلى ابناء مصر همَّة واكثرهم بحثاً في المسائل التاريخية وقد اتحفنا الآن بجزء من تاريخ الرومانيين وقال في مقدمتهِ انهُ اختارهُ "لانهُ مفعم بالحوادث الصادرة عن حب الوطن والاخلاص لهُ والتفاني في خدمتهِ والتهالك في الدفاع عنهُ والذود عن حوضهِ ولان مطالعتهُ واجبة على كل من يريد معرفة طرق تقدم الامم وارتقائها وكيف تنال الحرية والاستقلال بالدفاع عن حقوقها قبل كل معتدٍ ظالم والاتحاد على ما فيهِ خير وطنهم وفلاحهُ وجمع كلمتهم امام الاجنبي المهاجم والدخيل المزاحم ونبذ النفاق والشقاق من بينهم ليكونوا يداً واحدة لاعلاء شأن الوطن وبنيهِ"

ولو سألنا حضرة المؤلف من هو الاجنبي المهاجم والدخيل المزاحم في القطر المصري وهل يصدق ذلك على العائلة الخديوية مثلاً او على الدولة العثمانية او على الامَّة العربيَّة التي هاجمت بلاد الاقباط واخذتها من اهلها او هل يصدق بنوع خاص على البيوت التركية التي زاحمت الاهلين مثل بيت المرحوم والدهِ او هل يصدق على كل اجنبي استوطن هذا القطر من عرب وعجم وترك وديلم لو سألناهُ ذلك وانصف لترك هذا الوتر ولم يعد يعزف عليهِ واكتفى بالحث على نبذ النفاق والشقاق

والجزء الذي نشرهُ الآن من هذا التاريخ يبتدئ من تأسيس مدينة رومية سنة ٧٥٤ قبل الميلاد وينتهي بخراب قرطاجنَّة سنة ١٤٨ قبل الميلاد وهو مثل كل مؤلفاتهِ منسجم العبارة واضح البيان فنشكر لهُ عنايتهُ بجمعهِ ونشرهِ

نهضة الاسد

نُشر تاريخ الثورة الفرنسوية في تاريخ فرنسا الحديث الذي طُبع في بيروت سنة ١٨٨٤ لكن الحوادث التاريخية اذا أُفرغت في قالب الرواية وافرغها مؤلف ماهر مثل اسكندر ديماس الكبير كانت تلاوتها اوقع في النفوس . وقد لخَّص حضرة رصيفنا الفاضل فرح افندي انطون منشئ مجلة الجامعة رواية ديماس عن الثورة الفرنسوية وطبعها في ثلاثة اقسام سمَّى الاول نهضة الاسد لانهُ يصف نهوض الشعب الفرنسوي في ثورتهِ الكبرى الى طلب حقوقهِ وتذكير الحكام بواجباتهم . والثاني وثبة الاسد لانهُ يصف وثوب الشعب على المظالم وكسر نير الاستعباد والاستبداد . والثالث فريسة الاسد لان موضوعهُ افتراس الثورة للملك لويس السادس عشر والملكة ماري انطوانت قرينتهِ وجميع النبلاء ومشاهير الرجال . وحوادث الثورة الفرنسوية مفصَّلة في هذه الرواية احسن تفصيل وقد مزج بها المؤلف اخبار كاليسترو ومسمر واضاليلهما اي مزجهما الحق بالباطل مثال ذلك ما ورد في الرواية عن نوم اندري واعترافها بما تعلمهُ فان النوم ممكن واعتراف النائم بما يعلمهُ ممكن ايضاً . ولكن قولها بعدئذٍ ان مسمر نوَّمها نوماً مغنطيسياً فعلمت وهي نائمة بوجود الصندوقة ورأت اين كانت مخبوءة خداع لا صحَّة لهُ ولو استطاع منوّم ان يكشف المخبآت لاستُعمل التنويم لكشف كل مخبإٍ وركاز . وقد انكر العلماء كثيرًا من دعاوي مسمر لا لأَنهم جهلوا سببها بل لانهُ لم يُقم ادلة صحيحة على صحتها والادلة التي اقامها اثبتوا فسادها . فاذا قال قائل ان عندي دواء يجعل الحمار فرساً طالبناهُ بالدليل على صحة قولهِ اي باثبات قولهِ بالامتحان فاذا عجز عن اثباتهِ بالامتحان قلنا انهُ من الدعاوي الكاذبة . ثم ان الذي يحكم بصحَّة الامتحان او بفسادهِ يجب ان يكون كفئاً للحكم خالياً من الغرض فاذا ادَّعى رجل انهُ اكتشف دواء يشفي من السرطان وشهدت امهُ واختهُ وخالتهُ وكل نساء قريتهِ بصحة دعواهُ لم تقم شهادتهنَّ عند اهل التحقيق وانما الشهادة التي تقبل هي شهادة جمهور من الاطباء المجربين الذين يفحصون المصاب ويثبتون انهُ كان مصاباً بالسرطان بتطعيم الحيوانات منهُ وحدوث داء السرطان فيها ثم يثبتون انهُ شفي منهُ بزوال الاورام السرطانية تماماً وتطعيم الحيوانات بمواد مستخرجة من اماكنها وعدم ظهور داء السرطان فيها . وقد امتحنت

لجنة من العلماء دعاوي مستر فوجدت اكثرها كاذباً . " وعلى المدعي البينة " والعالِم معذور بانكار ما يخالفهُ علمهُ الى ان تقوم البينة على صحتهِ

وقد نشرت هذه الرواية التاريخية في اربعة اجزاء بعد ان نُشرت تباعاً في مجلّة الجامعة فمنّا لحضرة ملخصها وناشرها الشكر الجزيل

روايات الشعب

اهدت الينا مطبعة الشعب ست روايات صغيرة ثمن كل رواية منها غرش واحد وهي معربة باقلام جمهور من الادباء وقيل في مقدمتها انها تُرجمت ونشرت لكي يشدَّ بها ازر الحركة الجديدة التي يرجى ان تعود على البلاد بالخير في اقرب الاوقات وانها احسن اثر في نفوس الامم لانها ترقي الكمال والادب وشرف النفس وتوسع الفكر وتسمو بالعواطف . فعسى ان تكون كما وُصفت

تقرير مصلحة البوسطة

لا يزال النمو والارتقاء حليفين لمصلحة البوسطة فقد زادت المراسلات المتبادلة داخل القطر في العام الماضي عما كانت عليهِ في العام الذي قبلهُ اكثر من مليون فانها كانت ٢١٨٢٠٠٠٠ فبلغت ٢٢٨٢٧٠٠٠ وكذلك عدد المراسلات الصادرة الى البلدان الاخرى والواردة منها

ومن ذلك زيادة اعتماد الناس على البوسطة في تحصيل اموالهم فقد حصّلت سنة ١٩٠٠ نحو ثلثمئة الف جنيه وسنة ١٩٠١ اكثر من ٤٣٦ الف جنيه فالزيادة نحو ٤١ في المئة

ومنهُ ازدياد مراكز البوسطة في العام الماضي ٦١ مركزاً وازدياد المكاتب وحدها ١٢ مكتباً

هذا من حيث آثار النمو اما آثار الارتقاء فمنها تخفيض رسوم النقود المرسلة من مكان الى آخر فان البوسطة كانت تأخذ ١/٤ في المئة حتى سنة ١٨٩٥ ثم خفضت هذا الرسم وجعلتهُ ١/٨ في المئة ثم خفضتهُ في شهر ابريل الماضي وجعلتهُ ١/١٢ في المئة فقط ولكن الظاهر ان مكتب البوسطة في العاصمة لا يعرف ذلك حتى الآن وليست هذه اول مرةٍ اهمل فيها المرؤوسون العمل باوامر رئيسهم

ومنها انشاء صندوق التوفير اقتداءً بالممالك الاوربية وقد انشئ في غرة مارس سنة ١٩٠١ وبلغ عدد مكاتبهِ في العام الماضي ٢٨ وكان الجناب الخديوي اول من وضع مالاً فيهِ . وبلغ عدد الذين وضعوا النقود فيهِ في العام الماضي ٦٧٤٠ اكثرهم من الموظفين والمستخدمين ونحو نصفهم من الوطنيين والنصف الآخر من المستوطنين اكثرهم من الايطاليين والانكليز واليونان .

وبلغت الاموال التي ودعت فيهِ نحو ٨٦ الف جنيه والبوسطة تدفع لاصحابها فائدة بمعدل ٢ ١/٢ في المئة سنويًّا

كتاب حاضر المصريين

كتب حضرة العلاَّمة المفضال القاضي امير علي الى حضرة الاديب المجتهد محمد افندي عمر صاحب هذا الكتاب ما ترجمتهُ

ورد كتابك المؤَرخ ٨ مايو الماضي ومعهُ نسخة من مؤَلفك العربي "حاضر المصريين او سر تأَخرهم" فاشكر لك ذلك كثيرًا

وحررت هذا لك بالانكليزية لاسباب اولها اني تعودتُ ان اقضي كل اشغالي بها فاستسهلها في التعبير بها عن افكاري بكل سهولة وثانيًا لان الافصاح عن رأي من الآراء بهذه اللغة يكون اوسع انتشارًا بها منهُ بسواها ولان كثيرين يطلعون على ما يكتب بها . هذا وقد قرأت كتابك باهتمام عظيم ومنهُ استنتجت فوائد جمَّة وان وصفك للهيئة الاجتماعيَّة المصريَّة الاسلامية ينطبق تمام الانطباق على الهيئة الاجتماعية الهندية الاسلامية وحالة معيشتها وما وصفتهُ حضرتك من الدواء لا يصلح لمصر فقط بل للعالم الاسلامي باسرهِ وان انحطاط الامم الاسلامية ناشئ عن عدم التربية والتعليم وما استولى على المسلمين عمومًا من السبات الفائق الحد . لانهم ما داموا متمسكين بالماضي فلا تؤَثر فيهم عوامل التمدن الحديث . وقد دهشت كثيرًا بما ذكرتموهُ في مؤَلفكم عن خراب عائلات المسلمين المصرية من عهد ليس ببعيد . وهذا لما يطابق الواقع عندنا . واني اصادق على ما ابديتموهُ عن تعليم الاولاد وتربيتهم . فان تعليم النساء لمن الزم الامور لتقدم الامة اذ من البديهي ان الاطفال يتغذون بلبان الاعتقادات الفاسدة من الامهات الجاهلات . واما ما اشرتم اليهِ عن تعليم المصريين وجعلهم صالحين للعمل والحياة المستقبلة فامر اقدرهُ حق قدرهِ . وفي الختام اشكركم كثيرًا للتكرم بارسال نسخة من كتابكم اليَّ

كلكتا الامير علي

وكفى بهذه الشهادة من عالم من اكبر علماء الهند للدلالة على اتفاق فضلاء الامة في تشخيص دائها ووصف دوائها ولا عبرة بما يقولهُ الذين اعتادوا استعمال المسكنات والمخدرات مخافة ان يروا ما يحيق بهم من الدمار وما يتهددهم من سوء المصير

الحجاج بن يوسف

رواية تاريخية غرامية من قلم حضرة رصيفنا الفاضل جرجي افندي زيدان منشىء الهلال وهي الحلقة السادسة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تتضمن حصار مكة على عهد عبدالله ابن الزبير الى فتحها ومقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان . ويتخلل ذلك وصف مكة والمدينة وعادات اهاليهما واخلاقهم وسائر احوالهم . ومن رأي حضرة المؤلف ان نشر التاريخ على اسلوب الرواية افضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعتهِ والاستزادة منهُ وقد قال ان العمدة في رواياتهِ على التاريخ وانما يأتي بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين فيبقي الحوادث التاريخية على حالها ويدمج في خلالها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها فيصح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على اي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والاشخاص

هذا والرواية حسنة اللغة سهلة العبارة يجدر بجميع الراغبين في مطالعة الروايات قراءتها لما فيها من الفائدة التاريخية واللذة العقلية

فتاة الاسكندريَّة

ان كان مؤلف هذه الرواية قد اوجز فيها هذا الايجاز فيكون قد قصَّر في واجب موضوعهِ كل التقصير لانهُ يحتمل شرحاً طويلاً ولا يملُّهُ القارئ لكننا نستبعد ذلك لما يُعلم من سعة معارفهِ ومقدرتهِ على التوسُّع في الشرح كيف لا وهو صاحب رواية كوفادس الشهيرة كما يظهر من اسمهِ . وان كان هذا الايجاز من المترجم فيكون قد اخطأ الى رواية من ابدع الروايات واكثرها فائدةً وحبذا لو زاد عبارتها تنقيحاً فانها من الروايات الجليلة الحريَّة بكل اعتناء

مجلة الاحكام الشرعية

اهدي الينا العدد الاول من مجلة الاحكام الشرعية لحضرة المحامي الشرعي حسن بك حماده من متخرجي مدرسة الحقوق السلطانية في الاستانة وهي مجلة قضائية شرعية علمية ادبية تصدر في منتصف كلّ شهر عربي . ومن مواضيع العدد الاول القضاء الشرعي في مصر ماضيهِ وحاضرهُ . والمحاماة والقضاء . والمجالس الحسبية . وتنازع الاختصاص وغير ذلك من المواضيع القضائية فنثني على حضرتهِ طيّب الثناء ونتمنى لمجلتهِ الرواج

المذكرة الذهبية

أَلَّف حضرة الاديب اسكندر افندي فهمي من مدرسي مدرسة الاقباط الارثوذكسية بالاسكندرية كراساً سماهُ المذكرة الذهبية في المقاييس والموازين والمكاييل والنقود المصرية ومقارنتها بالانكليزية والفرنسوية . ويليها ١٦٨ مسألة واجوبتها لتلامذة السنة الثالثة والرابعة الابتدائيتين حسب المقرر في البروجرام الاخير

رسائل ارشاد الافكار الى طريق الابرار

هذا عنوان كتيّب لحضرة الشريف منصور افندي رئيس جمعية التعاون الاسلامي يتضمن ترجمة الشريف بقلم احد اصحابهِ واحدى عشرة رسالة في بيان امر المهدوية وسياسة الراعي بالرعية وحقائق علم الدين الاسلامي وهو يباع على حساب جمعية التعاون الاسلامي بعشرة غروش صاغ وبنصف هذه القيمة لطلبة العلم

باب المسائل

فتحنا هذا الباب منذ اول انشاء المقتطف ووعدنا أن نجيب فيهِ مسائل المشتركين التي لا تخرج عن دائرة بحث المقتطف . ويشترط على السائل (١) ان يمضي رسالتهُ باسمهِ والقابهِ ومحل اقامتهِ امضاء واضحاً (٢) اذا لم يرد السائل التصريح باسمهِ عند ادراج سؤالهِ فليذكر ذلك لنا ويعين حروفاً تدرج مكان اسمهِ (٣) اذا لم ندرج السؤال بعد شهرين من ارسالهِ الينا فليكررهُ سائلهُ فان لم ندرجهُ بعد شهر آخر نكون قد اهملناهُ لسبب كافٍ

(١) الاعتدال

سنورس . عزيز افندي ابرهيم . بكلية اسيوط جمعية اسمها جمعية الاعتدال غايتها الامتناع عن شرب المسكرات فهل يصح ان تسمَّى بهذا الاسم . وهل تجدون لها اسماً اصلح منهُ

ج نظن اننا نحن الذين اخترنا هذا الاسم وقد فضّلناهُ على غيرهِ لانهُ مثل كلمة temperance المترجم منها بكل معانيها الاصلية . اما الامتناع التام عن المسكرات فمعنى حديث عارض عليها يصحّ ان يضاف الى الكلمة العربية كما اضيف الى الكلمة الانكليزية. ولا نعلم كلمة عربية معناها الامتناع التام عن المسكرات . وقد اشار البعض باستعمال كلمة صحو وهي مصدر من صحا السكران اي ذهب سكرهُ ولكن يعترض عليها بانها تستلزم وجود السكر اولاً

(٢) التهاب البريتون

صدفا . ناشد افندي جبرائيل . قرأت في احد الكتب ان البريتون غشاء يغلف الامعاء والكبد وبعض اعضاء البطن فاذا اصاب التهابهُ جميع امتداد الغشاء كان منهُ خطر واذا اصاب جزءًا منهُ انتهى بالشفاء . وان اكثر وقوعهِ في الاشخاص المصابين بالتدرُّن والسرطان فهل ذلك صحيح وهل من دواء يشفي منهُ من غير عملية جراحية وما الفائدة من اجراء العملية الجراحية وهل تعاطي الافيون خير دواء لهُ

ج ان اكثر ما ذكرتموهُ في سؤالكم صحيح فالتهاب البريتون هو التهاب الغشاء المصلي الذي يكسو الامعاء والاحشاء البطنية وبطن جدران البطن والعام اشدُّ خطرًا من الجزئي ومن اسبابهِ انثقاب المعدة بسبب سرطانها او انثقاب الامعاء بتدرنها لكن لهُ اسبابًا اخرى كثيرة غير ذلك . والعملية الجراحيَّة لا تستعمل الاَّ اذا كان الالتهاب ناتجًا عن سبب يقتضي عملية جراحية كالادرة المخنوقة . اما الافيون فيستعمل اذا كان الالتهاب ناتجًا عن ثقب في المعدة او الامعاء لتسكين الاعراض

قدَم المخلوقات

ومنهُ . قلتم في جواب سؤالي في الجزء السابع ان الادلة كثيرة ومقنعة ان الخليقة خلقت منذ اكثر من ستة آلاف سنة فاذكروا لنا بعض هذه الادلة

ج ان تاريخ بلادكم مصر يمتدُّ الى اكثر من اربعة آلاف سنة قبل المسيح نعم ان الباحثين مختلفون في تاريخ الدولة الاولى من الدول المصرية فشمبليون يجعل زمنها ٥٨٦٧ قبل المسيح ومريت ٥٠٠٠ قبل المسيح وبرغش ٤٤٠٠ قبل المسيح ولبسيوس ٣٨٩٢ قبل المسيح ولكن اقل هذه السنين يبلغ نحو اربعة آلاف سنة وحساب برغش ارجح من غيرهِ . وكانت الامة المصرية مرتقية في عهد الدولة الاولى ارتقاء لا يبلغهُ البشر الاَّ في الوف كثيرة من السنين كما يظهر من ابنيتها ونقوشها واسلوب حكومتها . ويظهر من هذه النقوش ان الفرق بين اجناس الناس كان قد صار عظيمًا في ذلك العصر كما هو الآن فكان المصري يفرق عن الزنجي وعن الصقلبي وهذه الفروق لم تتكوَّن الاَّ بعد ان انفصلت طوائف الناس واختلفت مساكنها ومرَّ عليها كذلك الوف من السنين بدليل ما نراهُ الآن من بطء التغير في اشكال الناس فان كانت الف سنة لم تكفِ الآن لصيرورة العربي ساكن افريقية زنجيًا افطس الانف ضخم الشفتين فهي لم تكن كافية في الازمنة الغابرة . ثم ان الخليقة لا تقتصر على الانسان بل تعم سائر المخلوقات الارضية وهذه عاش جانب كبير منها ومات منذ سنين لا يحصيها الاَّ الله فان جانبًا كبيرًا من جبال الارض مكوَّن من اصداف حيوانات بحرية عاشت

وماتت ووقعت اصدافها في قاع البحر وتراكمت بعضها فوق بعض طبقات كثيرة في ادوار مختلفة ثم ارتفع قاع البحر بفعل الحرارة المركزية او باسباب اخرى فصار برًّا ثم زاد ارتفاعهُ فصار جبالاً وتماسكت بقايا الاصداف بعضها ببعض فصارت صخورًا ومن بعض هذه الصخور قطعت حجارة الاهرام منذ ستة آلاف عام والاصداف البحرية ظاهرة فيها . وقد مرَّت مياه الامطار على بعض هذه الصخور في بلدان اخرى فنحتتها رويدًا رويدًا الى ان اذابت اكثرها وعادت بهِ الى البحر واذا قدّر ما تنحتهُ منها كل سنة وما نحتتهُ منها حتى الآن ظهر انها ابتدأت في نحتها منذ ملايين كثيرة من السنين . هذه بعض الادلة التي يمكن ايرادها على قدَم المخلوقات الارضية

(٤) اسماء اشهر الممثلين

ومنهُ. ما هي اسماء اشهر الممثلين والممثلات في الدنيا الآن

ج كوكلين وارڤنغ وساره برنار وادلينا بتي

---

(٥) سكان اميركا الاهليون

الاسكندرية . الخواجه بترو خليل قرداحي . قرأت في الجزء العاشر من سنة ١٩٠١ عن كيفية دخول كريستوف كولمب الى اميركا وذكرتم انهُ كان هناك هياكل فما هي تلك الهياكل وما كانت معبودات الاميركيين في تلك الايام وما هي اللغة التي كانوا يتكلمونها

ج تجدون الجواب عن ذلك كلهِ في المقالات التي نشرناها تباعًا عن افتتاح اميركا بنوع عام والمكسيك بنوع خاص وفي ما سننشرهُ ايضًا في الاجزاء التالية

(٦) اهرام مصر

ومنهُ . كم عدد اهرام مصر وعلى عهد من بنيت وكم كان عددها وما هو القصد من بنائها وكم اقتضى من السنين لبناء كل هرم منها وهل سُخِّر الاسرائيليون في بنائها

ج عددها نحو ٧٢ هرماً بنيت على عهد ملوك مصر الاقدمين في ازمنة مختلفة اشهرها هرم الجيزة الاكبر الذي بناهُ الملك خوفو من ملوك الدولة الرابعة وكان قبل المسيح بنحو ٣٧٣٣ سنة ويتلوهُ الهرم التالي لهُ بناهُ الملك خفرا وكان قبل المسيح بنحو ٣٦٦٦ سنة والهرم الثالث بناهُ الملك منكرع وهو الرابع من الدولة الرابعة وتاريخهُ سنة ٣٦٣٣ قبل المسيح .ومن الاهرام المشهورة هرم اوناس وهرم تيتا وهرم بيي ولا يعلم كم من الزمن اقتضى بناءُ كلٍّ منها . والقصد من بناء الاهرام ان تكون مدافن او رموسًا او انصابًا فوق المدافن وقد ذكر هيرودتس انَّ بناءَ الهرم الاكبر اقتضى عشرين سنة وتمهيد الطريق لجلب حجارتهِ اقتضى عشر سنوات وبعضها لا يعلم مَن بانيهِ حتى الآن ولم يذكر في الآثار

المصرية ان الاسرائيليين سُخِّروا في بنائها ولكن ان كانوا في القطر المصري وقت بنائها فالمرجح انهم لم ينجوا من السخرة

---

(٨) باي تونس

تونس . د.ن جاء في الخطبة التي تلاها المسيو بيشون يوم تنصيب سمو باي تونس الفقرة التالية

Je donne à Votre Altesse l'investiture solennelle au nom du Gouvernement de la République.

فكيف تترجمونها الى العربية

ج اقلِّد سموكم السلطة الرسمية باسم الحكومة الجمهورية

---

(٨) الآبار الارتوازية

قنا . اسحق افندي يارد . سمعنا بالآبار الارتوازية وشاهدناها في اوربا ولم نشاهدها في القطر المصري الاَّ نادرًا فهل عدم الاكثار منها في القطر المصري مسبَّب عن اهمال ذويهِ او عن عدم نجاحهم لقلة المياه في جوف الارض

ج لا تكون الآبار الارتوازية الاَّ حيث يكون في الارض تجويف تجتمع المياه فيهِ ولا تنفذهُ او يكون فيها طبقتان صخريتان او طفاليتان مانعتان لنفوذ الماء وبينهما طبقة هشَّة تجمع المياه فيها والطبقتان ممتدتان الى مكان مرتفع فاذا حفرت بئر ووصلت الى هذا الماء صعد فيها حتى يوازي ارفع نقطة متَّصلة بهِ كما ترون في هذا الشكل فقد فُرِض فيهِ ان الخط الاسود المدلول عليهِ بالحرف a الافرنجي طبقة من الارض هشَّة بين طبقتين من الصخر او من الطفال المانع لمرور الماء فاذا ثقبت الارض بين الحرفين c و b ببئر ضيقة خرج الماء منها ونبع في الجو كانهُ خارج من فسقية لان الماء الذي في الطبقة الهشة متصل الى حيث الحرف a ولو لا مقاومة الهواء لهُ لبلغ ارتفاعهُ اعلى الشكل حيث الحرف o . والمرجح عندنا ان هذه الشروط للبئر الارتوازية غير

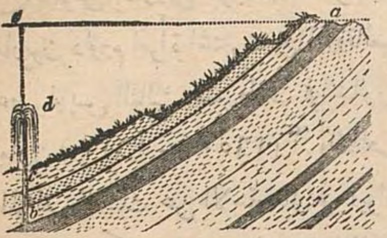

متوفرة في القطر المصري والآبار التي حُفرت فيهِ تسمَّى ارتوازية توسُّعًا . ولا نرى مزية زراعية ولا صحية من تعميق الآبار جدًّا فان ماء السواقي العادية في القطر المصري غزير صحي مثل ماء الآبار التي يقال انها ارتوازية فيهِ ولا يقلُّ عنهُ جودةً وصحَّةً ولقد كان احد اصدقائنا يحفر بئرًا ارتوازية منذ سنتين عن يد مقاول تعهَّد لهُ بحفرها وبان الماء يخرج منها غزيرًا لري اطيانهِ فنصحنا لهُ مرارًا ان يعدل عن ذلك لئلاَّ يضيع مالهُ سدًى فلم يعدل واخيرًا عاد بصفقة المغبون بعد ان انفق خمس مئة

جنيه ولم يخرج من البئر ماء اكثر مما يخرج من ساقية عادية لا تزيد اكلافها على اربعين جنيهاً

---

(٩) ماريون دلورم

دمياط . ع . ل . كثيرًا ما رأيت في مؤلفات الكسندر ديماس ذكر امرأة تسمى ماريون دلورم ويظهر منها انها كانت من ذوات الوقائع الخطيرة مع رشليه الوزير الشهير. وقد بحثت عن هذا الاسم في القسم التاريخي من قاموس لاروس فوجدت ما ترجمتهُ "ماريون دلورم امرأة اشتهرت بجمالها ووقائعها في عصر لويس الثالث عشر ولدت في شالون سيرمارن (١٦١٢ — ١٦٥٠)". والظاهر ان المؤلف امسك عن الاسترسال في ايراد تاريخها لئلا يكون فيهِ ما لا يجوز اطلاع التلامذة عليهِ فهل لكم ان تذكروا لنا شيئاً آخر عنها

ج خلاصة تاريخها ان عشاقها كانوا كثارًا ومنهم دوق بكنهام وسنت اقرمند ودوق بريساك واميري ويقال ان الكريدنال نفسهُ لم يكن خليًّا من حبها وانهُ اقصى عنها حبيبها الذي كانت تحبهُ حقيقة حبًّا شريفًا وهو الشاب سنك مارس . وكان بيتها مباءة لزعماء حرب الفرنديرحتى عزم مازارين ان يلقيها في السجن من اجل ذلك لكنها توفيت فجأةً سنة ١٦٥٠ وزعم البعض انها لم تمت بل هربت الى لندن وتزوجت هناك ثم عادت الى باريس وقال البعض انها بقيت حيَّة الى سنة ١٧٤١ لكن ذلك من الخرافات وقد بنى فكتور هيغو رواية على قصتها

(١٠) يهوديت

ومنهُ . مَن هي يهوديت الفتاة الاسرائيلية التي دمَّرت معسكر الاشوريين وكيف كان ذلك

ج هي ارملة يهودية نجَّت بلدها بيت فلوى من يد الاشوريين بمكيدة كادتها لقائد جيوشهم اليفانا وذلك انها تزينت ونزلت الى معسكرهِ واسكرتهُ واحتزت رأسهُ وهو نائم وعادت بهِ الى قومها ولمَّا نهض رؤَساءُ جيشهِ في الصباح ورأوا ما جرى لقائدهم مزَّقوا ثيابهم ووقع عليهم من الخوف والرعب ما لا يطاق واضطربت قلوبهم ولجأ الجيش كلهُ الى الهزيمة . والقصَّة مذكورة بالتفصيل في سفر يهوديت احد اسفار التوراة المعدودة عند البعض من الابوكريفا

---

(١١) الزهري

دمشق . احد المشتركين . نرجوان تكتبوا لنا فصلاً مسهباً في داء الزهري وكيف يتولَّد وكيف يعالج

ج لقد نشرنا في المجلد العشرين من المقتطف مقالة مسهبة جدًّا في الداء الزهري وتاريخهِ والادوية النافعة فيهِ فعليكم بمطالعتها فان ذلك اولى من كتابة مقالة ثانية في هذا الموضوع السمج

(١٣) ثمن المعادن

حلوان . عبد الحليم افندي فهيم . لماذا تفضَّل بعض المعادن على البعض الآخر كالذهب على الفضة

ج لانهُ اقل منها واصعب استخراجاً . ولو كان اكثر من الفضة واستخراجهُ قليل النفقة لصار ارخص منها وقد كان ثمن الفضة مثل ثمن الذهب تقريباً عند الاقدمين

(١٣) تبسم الطفل

ومنهُ . لما ذا يتبسَّم الطفل وهو نائم

ج التبسُّم فعل منعكس مسبَّب عن ازدياد تنبُّه في القوة العصبية وليس هو باغرب من حركة يد الطفل ورجلهِ . راجعوا ما قالهُ الفيلسوف هربرت سبنسر عن الضحك في الصفحة ٢٧٢ من مقتطف هذه السنة

(١٤) الزواج في فرنسا

ومنهُ . علم بالاحصاء ان الزواج يقل في فرنسا شيئًا فشيئًا فما سبب ذلك

ج لا يظهر ان الامر كما تقولون كما يتضح لكم من الجدول التالي وقد ذكرنا فيهِ عدد الزيجات في السنوات الخمس الاخيرة من القرن الماضي

١٨٩٦	٢٩٠ ١٧١
١٨٩٧	٢٩١ ٤٦٢
١٨٩٨	٢٨٧ ١٧٩
١٨٩٩	٢٩٥ ٧٥٢
١٩٠٠	٢٩٩ ٠٨٤

فقد قلَّ قليلاً سنة ١٨٩٨ ثم عاد فزاد كثيرًا في السنتين التاليتين اكثر من نسبة الزيادة في عدد السكان

باب الاخبار العلمية

تجارة فلسطين

كتب المستر دكصن قنصل انكلترا في يافا تقريرًا عن تجارة فلسطين في السنة الماضية جاء فيهِ ان الصادرات والواردات زادت عما كانت عليهِ في سنة ١٩٠٠ فبلغ مجموع ثمنها ٧٠٣٩٤٥ جنيهاً يقابلها ٦٤٧٣٥٥ جنيهاً سنة ١٩٠٠ . وقد كثرت المضاربة في تجارة البرتقال ولكن اسعارهُ هبطت في الاسواق الانكليزية فادَّى ذلك الى خسارة تجَّارهِ وزاد مقدار الشحن من ميناء يافا رغماً عن الحجر الصحي المضروب على البواخر بسبب الطاعون في مصر

وزاد جلب الآلات من اوربَّا لسقي البساتين حتى بلغ عددها في السنة الماضية ٤٨ آلة ثمنها نحو ٤٧٠٠ جنيه

اما تجارة انكلترا مع فلسطين فحسنة بوجه الاجمال . فقد نقصت الصادرات عما كانت عليهِ سنة ١٩٠٠ ولكن الواردات زادت ٣ , ٥ في المئة على حين ان واردات فرنسا نقصت ١٣ في المئة وواردات ايطاليا ٩ , ٣٤ في المئة وواردات المانيا ٢٧ في المئة

ولا تزال المستعمرات الالمانية وخصوصاً مستعمرات الاسرائيليين في فلسطين تصنع انواع الخمر المختلفة وتبذل الجهد في اتقانها حتى تجيء مشابهة لاحسن انواع الخمر الفرنسوية واكثرها يرسل الى همبرج في المانيا

ثقب الجمجمة

ان بعض الامم التي عاشت قبل زمن التاريخ كانت تثقب الجماجم لاسباب جراحية وقد اثبت احد العلماء ان العرافين في بريطانيا الجديدة احدى الجزائر الجنوبيَّة يثقبون الجمجمة بقطعة من الصدف او الزجاج اذا انكسرت بعارض من العوارض . ومتوسط الذين يموتون على اثر ذلك ٢٠ في المئة وموتهم ينشأُ غالبًا عن انكسار الجمجمة لا عن عملية الثقب والذين يشفون يقتضي لهم اسبوعان او ثلاثة اسابيع . وفي ارلندا الجديدة يثقبون الجمجمة عند انكسارها وعند اصابة احدهم بالصرع او بعض انواع الجنون الناجمة عن ضغط الدماغ . وبعد ثقب الجمجمة يصاب المريض بالشلل الوقتي ثم يزول عنهُ وقد يصاب بالجنون ايضاً . ويؤكد الاهالي ان الذين يشفون من الجنون او الصرع بهذه العملية كثيرون

وقاية الطيور

عقدت بعض الدول الاوربية وهي البلجيك وفرنسا واليونان والنمسا والبرتوغال واسوج ونروج وسويسرا واسبانيا وغيرها من الحكومات الصغيرة اتفاقاً في ١٩ مايو الماضي لوقاية الطيور التي تفيد الزراعة بأكل الحشرات المضرَّة وقد حظر فيهِ صيد هذه الطيور في جميع فصول السنة ومن الغريب ان ايطاليا لم تدخل في العقد المذكور مع ان كثيرًا من الطيور المفيدة تقتل فيها كل سنة

غرائب الصاعقة

انقضت صاعقة على منزل في مدينة جفرسن بولاية ايوى من الولايات المتحدة الاميركية فاحدثت ضررًا عظيماً . ومن غريب ما حدث ان اثني عشر صحناً من صحون المائدة كانت موضوعة الواحد فوق الآخر فانكسر الواحد منها وبقي ما يليهِ سليماً وهكذا من اول الصحون الى آخرها ولم يعلم ان كان ذلك قد نشأ عن فعل كهربائي او ميكانيكي

وزير طبيب

ان وزير فرنسا الجديد المسيو كومب حائز على دبلوما دكتور في الطب ودكتور في فنون الادب وكان قبلاً من معلمي المدارس

تلفون بلا سلك

روت جريدة السينتفك اميركان انهم يجربون التجارب في اميركا لعمل تلفون بلا سلك فنجحوا في ذلك بعض النجاح وتمكنوا من نقل الكلام مسافة مئات من الامتار في البرّ واقلّ من ذلك في البحر

مركوني وتلغرافهُ

خطب مركوني في المجمع الملكي بانكلترا عن ارسال الرسائل البرقية بالتلغراف الذي بلاسلاك من الباخرة التي ركبها في الاوقيانوس الاتلنتيكي الى اميركا . فقال ان الاشارات التي كان يرسلها نهارًا لم تصل الى اماكنها على بعد ٧٠٠ ميل واما التي كانت ترسل ليلاً فكانت تصل على بعد الفي ميل وقال انهُ لا يبعد ان يكون السبب في ذلك تأثير النور في الاسلاك الهوائية واضعاف كهربائيتها ويعالج ذلك بتقوية المجرى الكهربائي كما جرى عند ارسال الاشارات من نيوفوندلند فانها بلغت الاماكن التي ارسلت اليها مع انها ارسلت نهارًا على ذلك البعد الشاسع

قاموس وبستر وقواميسنا

لا يمضي يوم تقريبًا الاَّ ويضع علماء الانكليز وكتابهم كلمات جديدة تقتضيها مطالب التمدن الجديد والعلم الحديث ويضيفونها الى لغتهم . ويكفي لاعتمادها وادراجها في قواميسهم صدورها عن عالم من علمائهم او كاتب من مشاهير كتابهم. فقد ظهرت طبعة جديدة من قاموس وبستر المشهور وفيها ٢٥ الف كلمة وعبارة جديدة اكثرها كلمات وعبارات علمية وجمل اصطلاحية جدّت في العشر السنوات الاخيرة

اما قواميسنا فلا تزال على حالها المعروف محشوّة بالوف من الكلمات التي لا يمكن ان يستعملها كاتب في كتابتهِ وكلما مرَّ عليها يوم نسي كثير منها لقلة استعمالها ثم ان كتابنا مقيدون باستعمال القديم محافظة على شرف اللغة الفصحى كما يقولون واذا ادخل كاتبٌ كلمة جديدة او استعار عبارة اجنبية قامت عليهِ قيامة المتمسكين بالقديم وعدوهُ مارقًا من حزبهم وخارجًا من حدود العربية وتقاليدها الشريفة

سباق مركبات الاوتوموبيل

انبأنا البرق في اوائل هذا الشهر بان بعض مركبات الاوتوموبيل تسابقت بين باريس وفينا . وقد فصلت الجرائد الاخيرة هذا السباق فقالت ان مئة وثلاثين مركبة اشتركت فيهِ ولكنَّ كثيرًا منها انقطعت عن السير في آخر اليوم الاوّل لما طرأ عليها من الطوارىء في الطريق امَّا المسافة بين المكانين فطولها ٧٨٢ ميلاً وقد قسمت الى ثلاث مراحل تقطع كلٌّ منها في يوم واحد فكان المجلّي فيها مركبة رجل فرنسوي اسمهُ رندل

والمركبة من صنع معملهِ وثقلها نحو عشرة قناطير مصريَّة فاجتازت المسافة المذكورة في ١٥ ساعة و٢٢ دقيقة اي ان متوسط سيرها في الساعة بلغ ٥١ ميلاً وربع الميل وهي سرعة عظيمة لا يفوقها اكثر القطارات الحديدية سرعة

على ان الغريب في ذلك ان رندل المذكور كان يضطر في بعض الاماكن ان يقلل سرعة مركبتهِ بسبب وعورة الطريق. فللمحافظة على المتوسط المذكور كان يسيّر مركبتهُ باسرع من ٥١ ميلاً بعض الاحيان. واغرب من ذلك متانة المركبة واحتمالها مشقات طريق تُعدُّ من اوعر الطرق في اوربا لا سيما وانها تمرُّ في المرحلة الاخيرة على جبل علوهُ ٥٠٠٠ قدم والثلج مكلّل قمتهُ

اهالي فرنسا

بلغ عدد اهالي فرنسا في الاحصاء الاخير الذي جرى السنة الماضية ٣٨٩٦١٩٤٥ نفساً اي بزيادة ٤٤٤٦١٣ نفساً عما كانوا عليهِ في احصاء سنة ١٨٩٦ . ولا يزال الاهالي يهاجرون من القرى والمزارع الى المدن الكبيرة حتى بلغ عدد سكان باريس ٢٧١٤٠٦٨ وصار في فرنسا الآن ١٥ مدينة يزيد سكان الواحدة منها على مئة الف نفس على حين انهُ لم يكن منها سنة ١٨٩٦ سوى اثنتي عشرة مدينة

صعود الجبال

أَعلى ما بلغهُ الانسان في الصعود الى الجبال ٢٣٣٩٣ قدماً ولكنَّ العلماء يتساءلون عمَّا اذا كان يستطيع الصعود الى علوّ ٢٩٠٠٠ قدم مثلاً والاقامة هناك فان جسمهُ غير معتاد سكن الاماكن العالية جدًّا وعليهِ اذا باشر احد التصعيد في الجبال العالية شعر بعوارض كثيرة منها سرعة التنفس وسرعة دورة الدم وضعف القلب والاعياء ولذلك لم يحاول كثيرون الصعود الى الاماكن العالية اعتقادًا منهم ان الانسان لا يستطيع الاقامة حيث الهواء لطيف . ولكن من رأي بعضهم ان ذلك يتأتى بالعادة فاذا اراد احد الصعود الى رأس جبال حملايا وجب عليهِ ان يفعل ذلك رويدًا ويستريح مرارًا كثيرة حتى يتعود جسمهُ التغيرات الطارئة عليهِ اما الذين حاولوا الصعود الى قمم الجبال الشامخة الى الآن فانما فعلوا ذلك دفعةً واحدة فلم يكن للمجموع العصبي في الجسم فرصة يعتاد فيها احتمال تأثير الهواء اللطيف ولا للجسم فرصة لاحتمال برد الاعالي فكانوا يصابون بالاعراض المتقدم ذكرها وينكأون عن اتمام الصعود

المسيو اندره

لا يزال الناس يتحدثون في امر الرحالة اندره المشهور ويتساءلون عمَّا اذا كان لا يزال حيًّا يرزق او قضى نحبهُ في بلونهِ هو ومن سافر

معهُ . فقد جاء رجل من الاسكيمو سكان الاصقاع الشمالية الى بورت تشرتشل منذ سنتين وروى ان جماعة من اهالي تلك البلاد وجدوا اندره ورفاقهُ على بعد ٣٠٠ ميل شمالاً من بورت تشرتشل المذكور فلما اقترب اندره منهم اطلق بندقية فظن الاهالي انهُ يروم بهم سوءًا فانقضُّوا عليهِ وعلى رفاقهِ وقتلوهم

هذا ملخص الرواية ولكن لم تثبت صحتها. ولما سمعت شركة خليج هدصن الاميركية بها وعدت الراوي بجائزة عظيمة على شرط ان يأتيها بشيءٍ مما كان مع اندره واصحابهِ فعاد من حيث اتى وكان ذلك آخر العهد بهِ . ولكن مرسلاً انكليزيًّا في بلاد الاسكيمو بعث يقول انهُ رأى آلة تشبه التلسكوب قال عنها ان الاسكيمو اخذوها من اندره ورفاقهِ في ما اخذوهُ من السلب والغنائم

العلم والعمل في المانيا

من ادلة تقدم العلم في المانيا وتطبيق العمل عليهِ انهم استخرجوا سنة ١٨٤٠ ثمانية آلاف طنٍّ من السكر الخام (غير المكرر) من ١٥٤٠٠٠ طنٍّ من جذور البنجر اي انهم استخرجوا خمسة ونصفاً في المئة من السكر من تلك الجذور . وبعد ذلك بعشرين سنة استخرجوا ١٢٨٠٠٠ طنّ سكر من ١٥٠٠٠٠٠ طنٍّ من الجذور اي ثمانية في المئة وفي السنة الماضية استخرجوا ١٥٠٠٠٠٠ طنّ سكر من ١٢ مليون طن من الجذور اي ١٣ في المئة وهذا كلُّهُ ناشيءٌ عن الوسائط العلمية المحضة

ومما تقدمت فيهِ المانيا تقدماً سريعاً صناعة الادوات والآلات العلمية فصدر منها سنة ١٨٩٨ ما قيمتهُ ٢٥٠ الف جنيه اي ثلاثة اضعاف ما صدر منها سنة ١٨٨٨ واقتضى لها ٦٤٠٠٠ من العمال

هذان دليلان من الادلة الكثيرة على ما بين العلم وتقدم التجارة في المانيا من العلاقة الشديدة

كهربائية الشمس

ذكرنا في جزءٍ سابق مذهب ارهنيوس العالم الاسوجي الذي علَّل بهِ تكوُّن النيازك وذوات الاذناب والنور البرجي وما اشبه باندفاع ذرَّات صغيرة من الشمس الى الفضاء الذي حولها . وقد نشرت الآن مجلَّة العلم العام الفرنسوية مقالة للمسيو نوردمان بيَّن فيها ان كل ما يعلَّل بمذهب ارهنيوس يمكن تعليلهُ بان امواجاً كهربائية من نوع امواج هرتس تصدر من الشمس وتنتشر حولها ولا تصل هذه الامواج الى وجه الارض لان هواء الارض يمتصها قبل وصولها اليها

سبب زيت البترول

اشهر المذاهب لتكوُّن زيت البترول مذهب برتلو الكيماوي الفرنسوي على ما نوَّعهُ مندليف الكيماوي الروسي ومدارهُ ان البخار

المائي يفعل بالمركَّبات الكربونية المعدنية فيتكون من ذلك مادة هيدروكربونية كزيت البترول تماماً. وكان يعترض على هذا المذهب ان الزيت الروسي لا يعلل تكونهُ بهِ لان ليس هناك مركبات كربونية معدنية لكن المسيو سباتيه والمسيو سندرن بيَّنا الآن انهُ اذا التقى غاز هيدروكربوني بمعدن النكل تكوَّن منهُ سوائل كزيت البترول تماماً وبذلك يعلَّل تكون زيت البترول في اميركا وفي روسيا فاذا وجد في جوف الارض معادن قلوية وكربيدات معدنية واتصل بها الماءُ تكوَّن منها غاز الهيدروجين وغاز هيدروكربوني ثم اذا مرَّ هذا الغاز على النكل او الكوبلت او الحديد تكوَّن منهُ زيت البترول وهذه المعادن كثيرة في اميركا وفي روسيا حيث يوجد زيت البترول

جائزة مركوني

اعطت اكادمية لنسي الايطالية المسيو مركوني اربع مئة جنيه جائزة لهُ لاستنباطهِ التلغراف الذي بلا سلك

هدية علمية

اهدى المستر بيربُنْت مورجان متحف بستان النبات في باريز مجموعة من الحجارة الكريمة ثمنها الفا جنيه

رقَّاص فوكول

ان الرقَّاص الطويل الذي برهن بهِ العالم فوكول دوران الارض نُزع من كنيسة النثيون لما اعيدت كنيسة كاثوليكية سنة ١٨٣٢ ووضع جانباً ويراد الآن اعادة التجارب بهِ بادارة المسيو برجه والمسيو بوانكره

ترعة بناما

قرَّ قرار الولايات المتحدة على تكميل ترعة بناما وقد خوَّل مجلس الشيوخ الاميركي رئيسها ان يبتاع كل ما عند شركة بناما من الاعمال والادوات بثمانية ملايين من الجنيهات ويبتاع من جمهورية كولمبيا الارض اللازمة لاتمام الترعة

الكوليرا في القطر المصري

ابنا في مقالة مسهبة في هذا الجزء ان الكوليرا ظهرت في القطر المصري في اواسط الشهر ووصلت الى القاهرة وبلغت وفياتها فيها مبلغاً عظيماً . ثم اتضح بعد ذلك ان الكوليرا وصلت الى موشه مع الحجاج فان سبعة عشر من اهاليها حجوا الى مكة في هذا العام ولما عادوا الى بلدهم توفيت امرأة منهم بالكوليرا في آخر شهر مايو ولم يعرف المرض الذي توفيت بهِ حينئذٍ ثم اصيب ابنها بعدها وسرت العدوى الى سواهما . والظاهر ان الماء الذي يستقي منهُ اهالي موشه تلطخ بميكروب الكوليرا ولهذا اشتدَّ فتكها بهم . اما العاصمة فهبط عدد الوفيات فيها الى ٣٥ في اليوم بعد ان بلغ ٧٨ وهبط عدد الوفيات بالكوليرا في موشه الى ١٤ في اليوم واصيب واحد في الجيزة

واثنان في اسيوط ورجال الصحة باذلون اقصى جهدهم في حصر الوباء واستئصاله

معرض سنت لويس

اخَّر الاميركيون معرض سنت لويس الى صيف سنة ١٩٠٣ وقد بلغ المال المجموع لاقامتهِ حتى الآن اربعة ملايين من الجنيهات ولذلك ينتظر ان يكون اكبر من كل المعارض التي اقيمت قبلهُ

مجمع ترقية العلوم الاميركي

التأم مجمع ترقية العلوم الاميركي في مدينة بتسبرج بين ٢٨ يونيو و ٣ يوليو وتلا رئيسهُ السابق الدكتور تشارلس سد جوك منوت خطة الرئاسة وموضوعها الشعور او الوجدان والنظر فيهِ بيولوجيًّا وقد اثبت فيها الوجدان للعجماوات حتى ادناها وفسَّرهُ بانهُ توفيق الجسم الحي نفسهُ للاحوال الخارجية لاجل فائدتهِ وذهب الى انهُ ليس نوعاً من القوة ولا حالة من حالات الجسم وان فيهِ مقدرة على تغيير شكل القوة. فالشعور غير القوة الطبيعية المعروفة وليس في الطبيعة غير الشعور والقوة واما المادة فلا دليل عندنا على وجودها

قلعة بعلبك

كتب الدكتور بلس ان المذبح القديم الذي وسط هيكل بعلبك الكبير ليس منحوتاً في الصخر بل مبني بالحجارة وانهُ ليس في قلعة بعلبك شيء من قبل الرومانيين

خريطة مدبَّة

اشرنا الى هذه الخريطة غير مرة وقلنا انها تمثل فلسطين ومصر وهي مصنوعة بقطع ملونة من الفسيفساء وقد خيف من انها تتلف بعد اكتشافها فصنعت الآن صورتها بالزيت ووضعت في مدرسة القديس ديمتريوس الارثوذكسية في القدس

فَائِدة الغُبَار

لا يخلو مكان على سطح الارض من الغبار وان لم يصعد من الارض يهبط من السماء حتى ان السفن الماخرة في قلب الاوقيانوس العظيم لا يمرُّ بها يوم الاَّ وتجد الغبار قد تجمَّع على سطحها يقع عليها من الهواء حسب الظاهر وهو في الحقيقة آتٍ الى الارض من بين الاجرام السموية بعد ان يكون قد مرَّ عليهِ الوف من الاعوام تائهاً في فضاء الكون. والدقائق الكبيرة منهُ تسرع نحو الارض حينما تدنو منها فتحمو من شدَّة الاحتكاك بهوائها وتحترق وتظهر في الليالي الظلماء شهباً ثاقبةً

ولولا الغبار ما كنا نرى شيئاً من النور المستطير بل كنَّا نرى السماء مظلمة ولا نرى نور الشمس الاَّ حيث يقع مباشرة وكنا نمسي في ظلام دامس حالما تتوارى في الحجاب او تواريها سحابة عن الابصار ثم نرى نوراً يبهر الابصار حالما تشرق او تبين. وكنا نرى النجوم دواماً في جلد السماء لان نور الشمس

لا يحجبها عن الابصار . ولم يكن ضباب ولا سحاب لان دقائق البخار الصغيرة التي يتكون الضباب والسحاب منها لا تتجمَّع ولا تتكاثف الاَّ حول دقائق الغبار بل كان البخار يصعد الى الجو ثم يتكاثف بغتة حينما يبرد ويهطل ميازيب كافواه القرب فيخرب البيوت ويتلف المزارع ويغرّق الناس . والخلاصة ان الغبار الذي نشكو منهُ دواماً ولاسيما في هذه الديار لازم لزوم الهواء والماء ولولاهُ ما كانت المعيشة ممكنة في هذه الدنيا

سكة سيبيريا

اخطأ مهندسو الروس في مدهم سكة الحديد القاطعة بلاد سيبيريا خطاءً لا يصلح الاَّ بالمال الكثير وضعوا قضباناً لا تحتمل القاطرات الثقيلة الاَّ اذا سارت عليها عشرين ميلاً او اقل في الساعة والقاطرات تضطر ان تسير في بعض هذا الطريق بسرعة ٣٥ ميلاً في الساعة لكثرة انحدارهِ هناك ويقتضي اصلاح هذا الخطاء ستة ملايين من الجنيهات

اقدم الاعلام

يقال ان اقدم الاعلام علَم الصين الذي ترسم فيهِ صورة تنين او علم اليابان الذي ترسم فيهِ صورة زهرة من الاقحوان اما اعلام اوربَّا فاقدمها علم الدنمارك وهو صليب ابيض على رقعة حمراء وقد استعمل منذ سنة ١٢١٩ . ومن الغريب ان علَم الاميركيين اقدم من علم الانكليز المستعمل الآن لان الاول صنع سنة ١٧٧٧ واما الثاني فصنع سنة ١٨٠١

فضل اميركا على انكلترا

لم ينتج الخطاء صواباً كما انتجت السياسة الخرقاءُ التي دعت الى انفصال الولايات المتحدة الاميركية عن البلاد الانكليزية. وقد صارت الولايات المتحدة الآن بحيث لا تستغني عنها انكلترا شهرًا واحدًا وكيف تستغني عنها واكثر من نصف طعامها يأتي من الولايات المتحدة . قيل انهُ لما اشتدَّ الخلاف بين انكلترا والولايات المتحدة لاجل فنزويلا قال المستر كارنجي للمستر غلادستون ان اللورد سلسبري يخطئ اذا حاربنا لاجل فنزويلا لاننا نضطرهُ الى التسليم حالاً من غير ان نطلق بندقية فلم يفقه غلادستون مرادهُ وقال لهُ ان عمارتنا تسد كل موانيكم باسهل ما يكون فقال كارنجي وهذا الذي نفعلهُ نحن بانفسنا ان لم تفعلوهُ انتم لاننا نسد كل موانينا ونمنع ارسال الطعام اليكم فنميتكم جوعاً . فسكت غلادستون ولم يحر جواباً

وترسل الولايات المتحدة الى انكلترا كل سنة ٦٤٥ ٤٩٥ رأساً من البقر و ٣٨٢ ٨٣٣ رأساً من الغنم وخمسة ملايين و ٤٢٠ الف قنطار من لحم البقر و ١٢ مليوناً و ٥٥٠ الف قنطار من لحم الخنزير وسبعة وار بعين في المئة من الحنطة التي تؤْكل فيها و ٨٣ في المئة من الدقيق

توزُّع الثروة

قدَّر احد الباحثين ثروة اهالي الولايات المتحدة الاميركية بعشرين الف مليون جنيه وقسم الاهالي الى اربع طبقات الطبقة الاولى الذين يملك كلٌّ منهم عشرة آلاف جنيه فاكثر وهم ١٥٥٠٠ نفس ويملكون كلهم عشرة آلاف مليون واربع مئة مليون جنيه. والطبقة الثانية الذين يملك كل منهم اكثر من الف جنيه واقل من عشرة آلاف جنيه وعددهم ١٩٣٧٧٠٠ ويبلغ مجموع ثروتهم ستة آلاف مليون وستمئة مليون جنيه. والطبقة الثالثة الذين يملك كلٌّ منهم من الف جنيه الى مئة جنيه وهم ٦٧٧٣٤٠٠ نفس ويبلغ مجموع ثروتهم الفين وخمس مئة مليون جنيه. والطبقة الرابعة الذين يملك الواحد منهم اقل من مئة جنيه وعددهم ٦٧٧٣٤٠٠ ومجموع ثروتهم خمس مئة مليون جنيه لا غير. وجملة هؤلاء السكان ١٥ مليونًا و ٥٠٠ الف نفس والباقون من اهالي الولايات عيال عليهم نساءٌ واولاد وخدم. فخمسة عشر الف رجل يملكون اكثر من نصف ثروة البلاد ولو وزعت اموالهم اليوم على السكان كلهم ورجعت بعد خمسين سنة لوجدت اكثر الاموال عند نفر قليل منهم

تذكار الدكتور بلس

اجتمعت اللجنة المصرية التي أُنيط بها الاهتمام بالاكتتاب لاقامة تذكار للدكتور دانيال بلس رئيس المدرسة الكلية على اثر استعفائهِ من رئاستها فوجدت ان المال الذي جمع في القطر المصري الى الآن بلغ ١٣٦ جنيهًا افرنجيًّا و١٧ غرشًا ونصف غرش. ونظرت في ما يمكن ان يعمل بهذا المال تذكارًا لذلك الرئيس الفاضل في المدرسة التي انشأَها ورعاها بعين عنايتهِ وبث في نفوس ابنائها الشهامة وعزة النفس عدا ما مهد لهم من اسباب الارتقاء العقلي والادبي. وطالعت ما اقترحهُ لذلك بعض المكتتبين فوجدت مقترحاتهم كلها غاية في الاصابة وودَّت لو كان المال المجموع كافيًا للعمل بها كلها لكنهُ لا يكاد يكفي لمقترح واحد قرَّ عليهِ رأْي متخرجي المدرسة في الاجتماع الاول الذي اجتمعوهُ في ادارة المقتطف وهو عمل تمثال من الرخام ينصب في المدرسة الكلية ويكتب عليهِ بالعربية والانكليزية

تذكار
للدكتور دانيال بلس الرئيس الاول
للمدرسة الكلية السورية الانجيلية
من تلامذتهِ

فقررت اللجنة ان يكتفى بعمل هذا التمثال تذكارًا لهُ آملة ان الرؤساء الذين يأْتون بعدهُ يحذون حذوهُ ويفيدون المدرسة بعلمهم وعملهم كما افادها. وان التلامذة يرون هذا التمثال دوامًا فيتذكرون الرجل العظيم الذي انشأَ هذه المدرسة ومهد لهم سبل العلم

فهرس الجزء الثامن من المجلد السابع والعشرين

٧٢١ الدكتور بلس (مصوَّرة)
٧٢٧ الله والعلم . شعر لاحمد بك شوقي
٧٢٩ انتقاء الالفاظ . لفارس افندي الخوري
٧٣٦ محمد علي باشا (مصوَّرة)
٧٤٠ نبا من اليابان
٧٤٨ علم الفكر . لنجيب افندي شاهين
٧٥٣ خرائب الشام (مصوَّرة)
٧٥٧ ماهية الفلسفة
٧٦٢ البانيا او بلاد الارناؤوط . لتوفيق افندي كلداني
٧٦٧ عروسة النيل
٧٨٣ داء السرطان . للدكتور سعيد ابو جمره
٧٨٨ باي تونس وحاضرتهُ (مصوَّرة) . لادوار بك الياس
١٩٢ مكاتب المسلمين
٧٩٧ اتقاء الكوليرا وعلاجها

٨٠١ باب المراسلة والمناظرة * المرأة الشرقية . مدارس الشويفات الانكليزية
٨٠٥ باب التقريظ والانتقاد * تاريخ الرومانيين . نهضة الاسد . روايات الشعب . تقرير مصلحة البوسطة . كتاب حاضر المصريين . الحجاج بن يوسف . فتاة الاسكندرية . مجلة الاحكام الشرعية . المذكرة الذهبية . رسائل ارشاد الافكار الى طريق الابرار
١٨٠ باب المسائل * الاعتدال . التهاب البريتون . قدم المخلوقات . اسماء اشهر الممثلين . سكان اميركا الاصليون . اهرام مصر . باي تونس . الآبار الارتوازية (مصوَّرة) . ماربون دلورم . يهوديت . الزهري . ثمن المعادن . تبسم الطفل . الزواج في فرنسا
٨١٥ باب الاخبار العلمية * وفيهِ ٢٠ نبذة